تسلية المؤمنين

بهوان المصيبة إذا سَلِمَ الدِّين

راجعه وقرَّظه:

فضيلة الشيخ أ. د. عاصم القريوتي

فضيلة الشيخ د. محمد هشام الطاهري

فضيلة الشيخ د. بدر بن علي بن طامي العتيبي

تصنيف:

د. الصغيّر بن عمّار

-غفر الله له ولوالديه-

تقريظ فضيلة الشيخ أ. د. عاصم القريوتي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسَلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد،

فلقد اطَّلعتُ على ما سطَّره وحرَّره **أخونا الفاضل الشيخ الصغير بن عمار** في كتابته التي هي بعنوان: «**تسلية المؤمنين بهوان المُصيبة إذا سَلِمَ الدِّين**».

وهذه الرسالة جاءت حقيقةً في وقتها، وذلك أنَّه قد توالَت على الأُمَّة المصائب، فبعد زلزال تركيا، فُجعنا بزلزال المغرب، ثم بطوفان ليبيا، وآخر ما نُعاني منه الآن: ما أصاب إخوانا في فلسطين. نسأل اللهَ ﷻ أن يرحم من مات منهم، وأن يُعافي من جرح ومن ابتلي، وأن يحفظ من بقي.

ولا شكَّ أن المسلم يتعرض لابتلاء في حياته، وهذا الابتلاء بالمصائب بعضُه راجعٌ إلى الخطيئة والذنب الذي اقترَفه العبدُ، وهذه سُنَّة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأن يعاقب أحيانًا من يبتعد عن دينه، ويكون ذلك عقوبة وعبرة له في الدنيا، عسى أن تكون رادعةً له، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[النساء: ٧٩]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[الشورى: ٣٠].

وجاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عند الترمذي (٢٣٩٦): «**إذا أرادَ اللهُ بعبدِه الـخَيرَ، عجَّلَ له العُقوبَةَ في الدُّنيا، وإذَا أرادَ اللهُ بعبدِه الشَّرَّ، أمسَكَ عنهُ بذنبِه، حتَّى يوافـيَ به يومَ القيامة**».

هذا أمْرٌ، والأمرُ الآخَرُ هو أنَّه قد تـحِلُّ المصيبةُ من أجل أن تُرفعَ درجةُ المؤمن في الدنيا، وهذه المرتبةُ مشروطةٌ بالصَّبر على المصيبة، وعلى عدم السَّخَط عليها، وعدَم الاعتراض على قضاء ربِّنا وشَرعه وقدَره، وهكذا يقع للأنبياء والصالحين، فإنَّ اللهَ يَبتليهم لرَفعِ درجاتِهم، ولهذا جاء في الحديث: «**إنَّ العَبدَ إذا سَبقَتْ له من اللهِ منزلةٌ لم يَبلُغها بعَملِه، ابتلاهُ اللهُ في جَسدِه، أو في مالِه، أو في ولدِه**». رواه أبو داود (٣٠٩٠).

ولهذا، لـمَّا سُئل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أشَدِّ الناس بلاءً، قال: «**الأنبياءُ، ثم الأمْثَلُ فالأمثلُ، يُبتلَى الرجُلُ على حَسَب دِينه**». رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِن شَوْكَةٍ فما فَوْقَها إلَّا رَفَعَهُ اللهُ بها دَرَجَةً، أو حَطَّ عنه بها خَطِيئَةً**». رواه مسلم (٢٥٧٢).

وعليه، فليس بلازمٍ أن يكون الابتلاءُ عقابًا، ومع هذا فلا بُدَّ للإنسان أن يُراجِع نفسَه، خاصة في زمان التقصير في الطاعات، والبُعد عن التوحيد، والبُعد عن السنة، وانتشار المعاصي والجهر بها، إذْ لا يبعُد أن يكونَ هذا الابتلاء عقابًا، نسأل اللهَ السلامة. وأمَّا، إنْ خلا من ذلك، فهو من باب الابتلاء الذي تُرفعُ به الدرجات.

وعليه، فما يقع للكافر، فإنَّما هو عقابٌ له في الدنيا، ومِن عاجلِ العقوبة له في الدنيا، بخلاف المؤمن. وفي القرآن من الشواهد ما يدلُّ على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[آل عمران: ٥٦]، فقد يعذِّبُ الكافرُ في الدنيا، وقد يُمهِلُه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أيضًا، فيؤخِّرُ عذابَه.

وعلى أيِّ حال، فالـمُصيبة مهما بلَغَت وعظُمَت واشتدَّ أمرُها، فهي هيِّنةٌ مقابلَ المصيبة في الدِّين، ولهذا جاء في دعاء النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

قال: قَلَّمَا كان رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِن مَجْلِسٍ حتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لأصحَابِه، وفيها: «**ولا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا** »[1].

فالمُصيبة الكُبرى هي المُصيبة في الدِّين، فقد يُصابُ الإنسانُ في صحَّته، فيُصاب بمرض، وقد يُصابُ بوفاةِ قريب، وقد يُصابُ بنقصٍ في ماله، وغير ذلك من المصائب... غيرَ أنَّ المُصيبةَ الكُبرى، والرَّزِيَّة العُظمى، هي المُصيبةُ في الدِّين، كالبُعد عن الله، والبُعد عن التوحيد، والبُعد عن السنة، والوقوع في البدع، والإغراق في المعاصي، هذا هو أكبرُ المصائب، فإنَّ المال يهُون، والصحة تهُون، والنفْس تهُون مع المُصيبةُ في الدِّين.

وأخيرًا: جاءت هذه الرسالة من أخينا الفاضل الشيخ الصغيّر بن عمَّار في وقتها، حيثُ تناول جوانبَ عديدةٍ في كتابته -أحسَن اللهُ إليه-، فتكلَّم عن الصبر وفوائد الابتلاء، وبيَّن أنَّ المُصيبةَ العُظمى إنَّما هي المُصيبةُ في الدِّين، وختمَها بالكلام على تذكُّر المُصيبة العُظمى في حياة المُسلمين، ألَا وهي مُصيبة موت النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أسأل اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أن يحفظنا جميعًا، ويحفظ المسلمين في كل مكان، وأن يوفقنا لكل خير وهدى وصلاح، وأن يجبُرَ مُصابَنا، وأن يُصلِحَ حالَنا، وألَّا يجعلَ مُصيبتَنا في ديننا، وأن يكتُبَ الأجرَ لأخينا على تذكيره ونُصحه.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمد، والحمد لله أوَّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

كتبه/ عاصم بن عبدالله القريوتي

في مدينة الرياض، فجر الأحد ٧ من شهر ربيع الأول لعام ١٤٤٥ للهجرة

١- سيأتي تخريجُه -إن شاء الله تعالى-.

تقريظ فضيلة الشيخ د. محمد هشام الطاهري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ لله وحدَه، يُعامل بفضله وعدله مَن شاء من عباده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، يفعل ما يشاءُ في ملكه، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه خَيْر أُسوةٍ للمُبتلين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ؛

فقد تصفَّحْتُ رسالة **أخينا الشيخ الدكتور/ الصغيّر بن عمَّار** -وفقه الله-، «**تسلية المؤمنين بهَوان المُصيبَة إذا سَلِمَ الدِّين**»؛ فوجدتُها رسالةً نافعة، حيث بيَّن أنّ الحياة مبنيّةٌ على الابتلاء، وجلَّى فوائدَ الابتلاء، كما وضّح أنّ المصائبَ نوعان؛ دنيويّة وهي الهيّنة، ودينيّة وهي العظيمة، وأنّ مَن أُصيب بالأوّل مع سلامة الدّين فمُصابه أجرٌ ورِفعة، وإنّما الشّأن فيمن أُصيب بالثّاني، ولو سلِم له الأول، فمُصابه جلَل وضَعَة، وذلك لأن أعظم المصائب مصيبةُ الدِّين، ثمّ ذكر المُصاب الّذي يُواسي به العبدُ نفسَه، وهو موت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، هذا مع نقولاتٍ صحيحة، وتأصيلاتٍ سديدة؛ فأُوصي كلَّ مُبْتَلَى أن يقرأ هذه الرسالة، وأن يعمل بها، وأسأل اللهَ تعالى أن يُثيب مؤلِّفه خيرًا، وبارك فيه ورزقنا وإياه العمل، وصلى الله وسلَّم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمدُ لله رب العالمين.

كتبه/ د. محمد هشام الطاهري

٠٣/٠٤/١٤٤٥هـ

تقريظ فضيلة الشيخ د. بدر بن علي بن طامي العتيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

فإن من أعظم مقامات العبودية لله تعالى: مقام الصبر، ولئن كانت الدنيا مقام ابتلاء وامتحان، والإلنسان خُلق في كَبَد، وهو حارِث فيها، ماشٍ فوق مناكبها، مأمورٌ ومنهيّ-ـّـٌ ما بين حسنات ينادَى إليها، ومعاصٍ يُمنع منها، فإنه لا حيلة له في كلِّ ذلك إلا بوازع الصبر، وإلا فلا دِينَ لمن لا صبر له، وما قصَّر المقصِّرون عن الطاعات، ولا تجرَّأ المُبْطِلون على السيئات، ولا اقترف الناسُ مراكب الشهوات والشبهات إلا بالنقص في وازع الصبر أو زواله، وكُلٌّ بقَدره، وقد روي عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه قال: «**لا إيمانَ لمن لا صبرَ له**»[1]. وسمعتُ شيخنا ابن باز رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى في تفسيره لسورة العصر يقول: «في هذه السورة معنى عجيب، وهو أن الله تعالى ذكر الذين آمنوا، والإيمانُ عند أهل السنة: قول وعمل واعتقاد، ثم خص من هذه الثلاث (العمل الصالح)، وهو من الإيمان، ولكن الله أفرده لأهميته؛ لأنه شعار الدِّين الظاهر، ثم عطف على العمل الصالح (الدعوة إلى الحق)، وهو منه، ولكن الله أفرده لأهميته، ثم عطف على الدعوة إلى الحق (الدعوة إلى الصبر)، والصبر حق لا باطل، ولكن الله أفرده لأهميته، فدل ذلك

١- سيأتي تخريجُه -إن شاء الله تعالى-.

كلُّه على أن الصبر مِلاك الأمر كلِّه، **فمن لا صبر له لا يؤمن الله، ولا يعمل صالحا، ولا يدعو إليه**».

والمتأمِّل في مراتب العبادة يجِدُها كالعِقد الذي ينتهي من حيث يبدأ، والله من وراء القَصد كلِّه، وجميع أنواع العبادة، وما من عبادة من العبادات إلَّا وهي تسند على عبادة أخرى تُقوِّيها وتُغذِّيها وتقُوم عليها، وتزُول بزوالها، وتضعُف بضعفها، والصبر لا يقوم في قلب العبد المسلم إلَّا بعبادات أخرى، كالعلم بالله وتقديره حقَّ قدره، واليقين، والرجاء، وغير ذلك، **ومِن أعظم ما أراه يُقَوِّي الصبرَ في قلب العبد المسلم (المحبَّة)**، فمن يحِبُّ اللهَ تعالى صبَرَ على كلِّ شيءٍ في سبيل وُصوله إليه، فما ذلك إلَّا من المحبوب سبحانه، أمَا رأيتُم الأب الذي تعلَّق قلبُه بأحَد أبنائه، وهامَ بحُبه، فصار يَقبَل منه ما لا يَقبَل من غيره، ومهما طلَبه من شيءٍ جاءه به، ومهما وقع عليه منه ما فيه ضرَرٌ غلَبه حبُّه عن معاتبته بَلْهَ معاقبته، ولله المثلُ الأعلى، فيَقبَل المؤمنُ من ربّه ما قدَّر وقضى، ويُسلِّم له الأمرَ من قبلُ ومن بعد، ويشتغل بما عليه شرعًا من العمل الذي يُرضيه عنه، **كما أنَّ الصبرَ لا يستقِرُّ للعبد المؤمن في قلبه حتَّى يؤمنَ بثلاث:**

[١] حِكمة الله.

[٢] وأنَّ كلَّ شيءٍ بقدَر.

[٣] وأنَّ العاقبةَ الحَسنة للمؤمنين في الدنيا أو الآخرة.

فكلُّ ما يعرِض للمسلم ممَّا يكدِّر خاطرَه، ولا يسُر ناظرَه، من مصائبِ الدنيا وخسائرها، **يسأل نفسه عن هذه الثلاث:**

- هل ما وقع عليّ بحكمة من الله أم لا؟ واللهُ أتمُّ حِكمةً وحُكمًا.

- وهل ما وقع عليّ بقدرٍ من الله أم خارج عن قدَره؟ وكلُّ شيءٍ خلَقه اللهُ بقدَر.
- وهل سيستمِرُّ الحالُ كذلك؟ مصيبةٌ تِلْوَ مصيبة؟ ويسأل ما سأله السابقون: متى نصر الله؟ والوعودُ الربانية تقضي بحُسن العاقبة للمتَّقين، وحُسن مآل الصابرين، واللهُ لا يُخلِف الميعاد.

وكما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولو فتَّشت مَن فتَّشتَه لرأيتَ عنده تعنُّتًا ضدَّ هذه الثلاث»، ثم أنشد:

فإنْ تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ
وإلَّا فـإني لا أخـالُك نـاجـيـا

وعليه فكُلُّ مصيبة تهُون، ولكنَّ المصيبةَ كلَّ المصيبة، أن تكون المصيبةُ في الدِّين!

لأن مصيبةَ الدنيا إنَّما فيه فواتُ بعض نِعَم الدنيا ونِعَم الله تعالى لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ولكنَّ مصيبةَ الدِّين فيها خرابُ الدنيا والآخرة، والحالِ والمآل، وعليه فلا خوفَ على أهل الإيمان ولا هُم يحزنون، لأن الدنيا بأسْرِها عندهم لا تساوي شيئًا ولو ذهبَت كلُّها، **ولكن الكَسرَ الذي لا ينجَبِر: انكسارُ الدِّين، وانقطاعُ التعلُّق بالله تعالى، فهذا هو واللهِ المُصاب، وكلُّ مصيبة تحت هذه المصيبة تهُون.**

والناظر في حال الناس اليومَ وجدَهم يتألَّمون ويحزنون ورُبَّما زاد الأمرُ بهم بؤسًا وحزنا إلى حدِّ الموت إذا أصابهم شيءٌ من مصائب الدنيا، ولكنَّ دينَهم يصاب في كلِّ يومٍ ويُثلَم، بارتكاب محرَّم، أو ترك فرض، ثم لا يحرِّك ذلك من قلوبهم لا خوفًا ولا

١- انظر: «زاد المعاد» (٣/ ٢١١).

وجَلًا ولا حزنًا ولا أسفًا! وقد مضى من السلف أقوامٌ يُعَزِّي بعضُهم بعضًا على فوات الطاعة، ويسترجعون ويتألَّمون، ورُبَّما عاقبُوا أنفسَهم بطَرح شيءٍ من الدنيا أسفًا على ما وقع في الدِّين من نَقصٍ أو غفلةٍ أو تقصيرٍ، ولتكُن قصَّةُ نبيِّ اللهِ سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ منك على بال، والأمثلة كثير.

هذا، وقد كتب صاحبُنا الجليل، وحبيبُنا النبيل، صاحب القلم السيّال، والعلم الزُّلال، **فضيلة الشيخ الدكتور الصغيّر بن عمَّار** -وفقه الله ونفع به-، هذه الرسالة اللطيفة الشريفة، والتي بعنوان: «**تسلية المؤمنين بهَوان المُصيبَة إذا سَلِمَ الدِّين**»، تكلَّم فيها مُسَلِّيًا إخوانَه المؤمنين بأنَّ المصائبَ مهما كبُرَت فإنها تهُون إذا سَلِم دينُهم، وكعادته في حُسن تصنيفه، وجميل جمعه وتأليفه، يتفنَّن في سَبك الآيات والأحاديث والآثار والأشعار والأخبار، وأعلَمُ أنَّ مُرادَه الاختصار، وإلَّا فالبابُ معناه عظيم، ولو أراد ضربَ الأمثلة في حال السلف في استقبال مصائب الدنيا والدِّين لوجَد المادة المفيدة، والعِبَر النافعة، فأسألُ اللهَ تعالى أن يجزِلَ الأجرَ لفضيلة الشيخ على هذا الجُهد المبارك، وأن ينفع به المسلمين، وما أعُدُّ كتابتي هذه إلا شرفًا به لا تشريفًا له، لأنه مِن خَير مَن يُعان على الخَير، وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

بدر بن علي بن طامي العتيبي

عضو هيئة التدريس بمعهد الأئمة والخطباء

الأحد ٢٣ ربيع الأول ١٤٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هانَت به كُلُّ الـمِحَن، وصلَّى اللهُ وسلَّم على الذي كانت بِعثتُه من أجَلِّ الـمِنَن، وموتُه مصيبةً هبَّت بعدها رياحُ الفِتَن، وعلى آلِه وأصحابه أولي الصبر والسلامة من كلِّ شبهةٍ أو شكٍّ ودَرَن.

أما بعد،

فهذه ورقاتٌ مختصَرة في موضوعٍ مُهِمٍّ للغاية، في ذِكره سُلْوَةٌ لكُلِّ محزون، وعِبرةٌ لكُلِّ قلْبٍ مَكلوم، وهو بيان أنَّ مصائب الدنيا -وإن جلَّت- هيِّنَةٌ إذا سَلمَ الدِّين، واستقامت الأحوال، ورضي ربُّ العالمين. وسمَّيتُها:

«تَسليةُ المؤمنين بهَوان الـمُصيبةِ إذا سَلِمَ الدِّين»[1]

الداعي إلى تأليف الكتاب

وأما عن سبب الكتابة في هذا الموضوع، فهو راجع إلى أمور:

- **منها**: التقرُّب إلى الله تعالى بنُصح المسلمين وتذكيرهم وتعليمهم.

١- وكنتُ قد سمَّيتُ الكتاب ابتداءً: «**تَسليةُ المؤمنين بهَوان مُصيبةِ الدنيا عند سَلامة الدِّين**»، ثم غيَّرتُه بإشارة من شيخنا صالح بن عبدالله العصيمي -بارك الله فيه وأجزَل له المثوبة-.

- **ومنها**: قلة العناية بعِلم السُّلوك عند المتأخِّرين، مقارنةً بالتصنيف في سائر العلوم.
- **ومنها**: تسلية المؤمنين -الذين أَنْـهَكَهم البلاء، وأَرَّقَهم الحُزن على ما فات من الدنيا- بأنَّ سلامةَ الدِّين هي السعادة الحقيقية، التي من حُرِمها حُرِم كلَّ الخير، ولو أصابته صُنوفٌ من الأذى، وألوانٌ من القلَق والأسَى.
- **ومنها**: أني لم أرَ رسالةً مستقلةً في هذا الموضوع على أهميته.
- **ومنها**: أنه قد اجتمعت لدي عدةُ فوائد في الباب، بعضُها مبثوثٌ في كتبي، وبعضُها كان في مسوَّدات متفرِّقة، فاستخَرتُ اللهَ في جمعها في موضع واحدٍ تحت هذا العنوان.

والكتابة في علم السلوك أمرٌ مُهِمٌّ لطالب العِلم، لأنَّ هذا الدِّين مبنيٌّ على مراتبَ ثلاثةٍ:[١]

- **الإسلام**، وعليه مدار الفقه، إجمالًا.
- **والإيمان**، وعليه تنبني أصولُ العقيدة.
- **والإحسان**، وعليه مَدارُ السُّلوك وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من أعمال القلوب.

١- وقد فصَّلتُ القولَ في هذه المراتب الثلاث في كتابي: «**كأس السلسبيل من فوائد حديث جبريل**»، وهو مطبوع متداوَل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والعِلم الممدوح هو الذي ورَّثه الأنبياء، **وهذا العلم ثلاثة أقسام:**

الأول: علم بأسماء الله وصفاته وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله «سورة الإخلاص» و «آية الكرسي» ونحوهما.

والثاني: العلم بما أخبر الله تعالى به مما كان من الأمور الماضية ومما يكون من المستقبلة وما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثله أنزل الله القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار.

والثالث: العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح، من الإيمان بالله، **ومن معارف القلوب وأحوالها**، وأحوال الجوارح وأعمالها، وهذا يندرج فيه العلم بأصول الإيمان، وقواعد الإسلام، والعلم بالأقوال والأفعال الظاهرة مما هو في كتب الفقه».

وإلى هذا أشار الإمامُ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله[٢]:

والعلـــــمُ أَقسَـــــامٌ ثَـــــلَاثٌ مَالهَـــــا
مِـــــن رَابِـــــعٍ وَالحـــــقُّ ذُو تِبْيَـــــانِ

١- «المستدرك على مجموع الفتاوى» (١/ ١٢).

٢- انظر «شرح النونية» للهراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٢٤٣).

علـــــمٌ بأوصـــــاف الإِلَـــــهِ وفِعلـــــهِ
وكـــــذلك الأســـــماءُ للـــــدَّيانِ

والأَمـــرُ وَالنَّهْـــيُ الَّـــذِي هُـــوَ دينُـــهُ
وجـــزاؤُهُ يـــومَ المَعَـــادِ الثَّـــانِي

والكُـــلُّ في الْقُـــرْآنِ والسُّـــنَنِ التـــي
جَـــاءَت عَـــن المَبعـــوثِ بالفُرقـــانِ

واللهِ مـــا قـــالَ امْـــرُؤ مُتَحَـــذْلِقٌ
بِســـواهُما إلَّا مِـــنَ الهَـــذَيانِ

يقول العلامة ابنُ سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح حديث: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيرًا، يُفَقِّهْهُ في الدِّين**»[١]: «ودخل في ذلك: التفقُّهُ بحقائق الإيمان، ومعرفةُ السَّير والسُّلوك إلى الله، الموافقةُ لما دَلَّ عليه الكتاب والسنة».[٢]

والمتأمِّلُ في الكتب المصنَّفة في اعتقاد أهل السنة والجماعة يجِدُ أنَّ من المسائلِ المُودَعَةِ فيها: أخلاقَ أهلِ السنة وصفاتِهم التي تَـحَلَّوْا بها: مِن

١- رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

٢- انظر: «بهجة قلوب الأبرار» (ص ٣٢).

العبادةِ، واحتقارِ النَّفس، والعملِ الصالح، والإحسان إلى الخَلق، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأوصاف المَجيدة.

وبهذا يَجمَعُ أتباعُ السَّلف بين الهُدى، وهو العلم النافع، ودين الحق، وهو العمل الصالح، **لأنَّ دينَ أهلِ السُّنَّة والجماعة ليس عقائدَ قلبيَّة فحَسْب، بل هو: عقائدُ قلبيةٌ، وحقائقُ إيمانيةٌ، تَبدُوا على الجوارح والأركان.**

ومِن مَحاسِن التأليف عند السادة المالكية: أنَّهم يـجمَعون في مصنَّفاتِهم بين الأُصول والفُروع، والعِلم والعمَل، ولهذا تَراهم يجعَلون بين يدي كُتُبهم الفقهيةِ مقدِّماتٍ عقَديةً، ويختِمونها بأبوابٍ جامعةٍ في الأدَب، ومُعامَلة الـخَلق، حتَّى مع الحيوان. وانظر مثالًا لذلك في كتاب «الرسالة» للإمام ابن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الـمتوفَّى سنة ٣٨٦ هـ)، والتي كتَبها أساسًا للصِّبيان، تربيةً لهم منذ النشأة على الدِّين الكامل ، والمنهج الشامِل.

وانطلاقًا من هذه النظرة الشمولية للدِّين، كتبتُ -بفضل الله- بعضَ الـمؤلَّفات في السلوك وأعمال القلوب، منها:

❶ «شذا العبير شرح قصيدة «أنا الفقير»».

❷ «نُصح المؤمنين وتبيان منازل السائرين: شرح لقصيدة «السير إلى الله والدار الآخر»».

❸ «مرابع الإحسان شرح «المعاني الـحِسان في نُصح أهل الإيمان»».

❹ «بُغية الناجي شرح «وصية الباجي»».

❺ «تَسليةُ المؤمنين بهَوان الـمُصيبةِ إذا سَلِمَ الدِّين».[١]

واللهَ أسأل أن يَلطُفَ بِنا، وأن يَرزُقَنا العَفو والعافِيَـة والمُعافاةَ الدائمَةَ في الدين والدنيا، وأن يجعل أعمالَنا لوجهه خالصة، ولسنة نبيِّه موافقة، وصلَّى اللهُ على نبينا محمد وآلِه وصحبه وسلَّم.

وكتب: الصغيِّـر بن عمَّـار

ظهر الأحد ٢٤ من ذي الحجة لعام ١٤٤٠،

الموافق لـ ٢٥ أوت ٢٠١٩،

بـــمدينة «لـــيون» بـفـرنـسا[٢]

١- طُبع منها الثاني والـخامس، واللهُ ييسِّر طبعَ الباقي.

٢- ثم أعدتُ النظرَ فيه قبل طبعه، استدراكًا وتصحيحًا، وتمَّ ذلك -بفضل الله-: عصر الأحد ٢٣ من ربيع الأول ١٤٤٥، الـموافق لـ ٨ أكتوبر ٢٠٢٣، بـــمدينة «لـــيون» بـفـرنـسا.

الحياة مبنيَّة على الابتلاء

إنَّ المقصودَ من الخَلق هو تحقيق عبودية الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، فابتلاهم بالعبادة التي فَطَرهم عليها، وبعث إليهم بهذا رسلَه، وأنزل برحمته عليهم كتبَه، فاتضَّحت بهذا المَحَجَّة، وقامت على الناس بذلك الحُجة، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٦٥]، فانقسموا إلى شقي وسعيد، ومقرب وطَريد.

قال العلامة ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها، وهم في انحرافهم متفاوتون،** فالضالون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أندادا، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده، ولكنهم ربما خالفوا بعض أوامره قليلا أو كثيرا، هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق متفاوتون فيه».

١- «التحرير والتنوير» (٢١/ ٨٢).

وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[الأعراف: ٢٩ - ٣٠]، **وهذه آية جامعة**[١] **جمعت:**

أصول الشرائع الواجبة، وأعظمها إخلاص الدين لله.

ومصير الخلق، وأنهم عائدون إلى الله يوم القيامة كما بدأهم في الدنيا، وانقسامهم بعد نفاد قدر الله فيهم- إلى فريقين: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[الشورى: ٧].

والعبد في هذه الدنيا يسير إلى الله تعالى بقلبه يَقطع مَفاوِزَ الآخرة حتى يصل إلى ربه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فالمؤمن في الدنيا يسير إلى ربه حتى يَبلُغَ إليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩].

١- كما قال العلامة ابن سعدي في «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص ١٧).

٢- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٤٤٢).

قال الـحسن[١]: يا قوم، المداومةَ المداومةَ، فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثم تلا هذه الآية». انتهى كلام ابن رجب.

فإذا سار القلب إلى الله، وانقطع إليه، تقيَّد بحُبِّه، وصار في وِثاق العبودية، فلم يبق له مَفزَعٌ في النوائب، ولا ملجأٌ غيرُه، ويصير عدَّته في شدَّتِه، وذخيرتَه في نوائبه، وملجأَه في نَوازِلِه، ومستعانَه في حوائجه وضروراته.[٢]

وعليه، فإنَّ الوصول إلى الله نوعان:

- **أحدهما**: في الدنيا.
- **والثاني**: في الآخرة.

فأما الوصول الدنيوي فالمراد به: أن القلوبَ تصل إلى معرفته، فإذا عرفته أحبته، وأنِست به، فوجدتهُ منها قريبا ولدعائها مُجيبا.

وأما الوصول الأُخْرَوِي: فالدخول إلى الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه.

ولكنهم في درجاتهم متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في

١- رواه ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الزهد» (١٨).

٢- «شرح منظومة السير إلى الله» لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٩).

الدنيا في القرب والمشاهدة.[١]

فإنَّ اللهَ تعالى يُري عبدَه في قَطْعِ مَسافَة سَفَرِه آياتٍ يُرسِلُها تَخويفًا لعِباده، لئَلا يَمِيلُوا عن طَريقِهم المستقيم، ونَهجِهم القَويم، فمَن مالَت به راحِلَتُه عن طريق الاستقامة، فرَأى ما يَخاف منه، فليَرغَب إلى الله بالرُّجوع إليه عمَّا ارتكبَه من السُّبُل، فيَتوبَ من مَعصِيته، ويَبكي من قَسوَته، فإذا انتبَه من رَقْدَةِ كَسَلِه، عَلِم أنَّ الدنيا دارُ غُرورٍ طُبِعَت على كَدَر.[٢]

طُبِعَت على كَدَرٍ وأنتَ تُرِيدُها
صَفْوًا مِن الأَقْذَارِ وَالأَكْدَارِ

١- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «رسائل ابن رجب» (١/ ٤٤٧-٤٤٨) باختصار.

٢- بتصرف من «تسلية أهل المصائب» للمَنبجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ٢٤٧).

الحياة بين منزلتي الشكر والصبر

العبد في حياته إنما هو ماضٍ إلى الله تعالى، وفي هذا الطريق يمر بمنازلَ لن يدخلَ الجنة حتى يقِفَ بها.

ومن ذلك منزلة الشكر ومنزلة الصبر، لأنَّ العبدَ في هذه الدار يتنقَّلُ بين:

- نِعَمٍ من الله تعالى تترادف عليه، قَيدُها الشكر.
- ومِحَنٍ من الله تعالى يبتليه بها، فَرضُه فيها الصَّبر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فإن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يبتَلِه ليُهلِكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبرَه وعبوديتَه، **فإن لله تعالى على العبد عبوديةَ السراء، كما له عبوديةٌ في الضراء، وله عليه عبوديةٌ عليه فيما يَكره، كما له عبوديةٌ فيما يحب، وأكثرُ الخَلق يُعطُون العبوديةَ فيما يحبون، والشأنُ في إعطاء العبودية في المكاره**، ففيها تتفاوت مراتب الناس في الدنيا، وعليها تتفاوت مراتبهم في الآخرة».

والناس -كما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «**كانوا يتساوَون في وقت النِّعَم، فإذا نزل البلاء تبايَنوا**».[٢]

١- «الوابل الصيب» (ص ٥).

٢- رواه ابن المبارك في «الزهد» (٥٥٨)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٣).

ومِن شعر أبي الطيِّب المتنبي:

لـــولا المشـــقَّةُ ســـادَ النـــاسُ كلُّهُـــمُ

الـــــجُودُ يُفقِـــرُ والإِقْـــدامُ قَـــتَّالُ

قال ابن الجوزي[1]: «والإيمانُ القويُّ يَبِينُ أَثَرُه عند قُوَّة البَلاء».

وقال زياد بن عمرو[2]: «كُلُّنا نكرَه الموتَ وأَلَـم الجِراح، ولكنَّا نتفاضلُ بالصبر».

وبهذا ارتفع أولياءُ الله المتَّقون، **الَّذين فَعَلوا الـمَأمور، وتَركوا المَحظُور، وصَبَروا على الـمَقدور، فأَحَبَّهُم اللهُ وأَحَبُّوه، ورضِيَ عنهُم ورَضُوا عنه.**[3]

ولهذا، بعد أن أمَرَ اللهُ بِذكره وشُكرِ في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]، قال بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٣]، الآيات في الصبر.

قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لما فَرَغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذِكره وشُكره، عقَّب ذلك بإرشادِهم إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، **فإنَّ مَن**

١- «صيد الخاطر» (ص ٢٠٠).

٢- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٥٠).

٣- انظر «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص ١٥١).

جَمَع بين ذِكر الله وشُكره، واستعان بالصَّبر والصلاة على تأدِيَة ما أمر الله به، ودَفْعِ ما يَرِدُ عليه من المِحَن فقد هُدِيَ إلى الصواب ووُفِّقَ إلى الخير، وإنَّ هذه المعية التي أوضحَها اللهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيها أعظمُ ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصَّبر على ما يَنُوبُ من الخُطُوب، **فمن كان الله معه لم يـخْشَ من الأهوال**»[1].

ومن تأمَّل اختبار الله تعالى لعباده وجده تارةً يكون بالمسارِّ ليشكروا، وتارة بالمضارِّ ليصبروا. فصارت المِنْحة والمِحْنة جميعاً بلاءً. فالمِحْنة مقتَضِيةٌ للصَّبر، والمِنحة مقتضيةٌ للشكر، **والقيامُ بحقوق الصّبر أَيسر من القيام بحقوق الشكر**، فصارت المِنْحة أَعظم البلاءَين.[2]

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء، وفي الحديث قولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعوذُ بك مِن فِتنَةِ الفَقر، وشَرِّ فِتنَة الغِنَى**»[4].

=

١- «فتح القدير» (١/ ١٨٣).

٢- بتصرف من «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للعلامة الفيروزآباديي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٢٧٤). واستفدت هذا النقل من محقِّق كتاب «الفتن والبلايا والمحن والرزايا»، للعلامة العِزِّ بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣- «الحسنة والسيئة» (ص ٧٣)، باختصار.

٤- هذا سياقه مختصرا، وهو عند البخاري (٦٣٧٧)، ومسلم (٥٨٩).

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة، وفى الضراء الألم، اشتهر ذكر الشكر في السراء، والصبر في الضراء».

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «بُلينا بالضَّرّاءِ فصبرنا، وبلينا بالسَّراءِ فلم نَصبِر»، وقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «من وُسِّع عليه في دنياه، فلم يعلَم أنَّه قد مُكِر به، فهو مخدوع عن عقله»، والله يقول: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾[الأنبياء: ٣٥].[1]

١- انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٢٧٤).

منزلة الصبر من الدِّين وفوائد الابتلاء للمسلمين

لا يخفى على كل مسلم ما جعل اللهُ لمنزلة الصبر من درجة عَلِيَّة، ولأهله من الـمِنَح الإلـٰهية، وفي التنزيل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥]، والبُشرى أنَّ عليهم صلواتٍ ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٧]، أي: ثناءٌ وتَنْوِيهٌ بحالِهِم ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفَّقَهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر[1]، وسبب ذلك أنهم سلَّموا لله، وحَبَسوا أنفسهم على قضاء الله، وقالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦].

قال الراغب الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**وليس يريد بالقول اللَّفظَ فقط**، فإن التلفظ بذلك مع الـجَزَع القبيح والسَّخَط للقَضاء ليس يعني شيئاً، وإنما يُريد تَصَوُّرَ ما خُلِقَ الإنسانُ لأجله، والقصدَ له، والاستهانةَ بما يَعرِض في طريق الوُصول، فأمَرَ تعالى بِبشارَة مَن اكتَسب العلوم الحقيقيَّة وتَصوَّرَها، وتَصوَّر بها المَقصَد ووَطَّنَ نفسَه عليه.

١- انظر: «تفسير السعدي» (ص ٧٥).

٢- «تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ٣٥٣).

فإن قيل: ولِـمَ قلتَ إنَّ الأمر بالصبر يقتضي العِلم، وما الصبرُ من العِلم؟

قيل: **الصبر على الحقيقة إنَّما يكون لمن عَرَفَ فضيلةَ مطلوبِه**، ولهذا قال الخَضِرُ لموسى لـمَّا عَلِم أن ليس يعرف مقصده في فعله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[الكهف: ٦٧ - ٦٨]، **فدَلَّ أن حقيقةَ تحمُّل الصبر لا بُدَّ له من معرفة المقصود به**».[١]

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «منظومة السير إلى الله»:

صَــبِّرُوا النُّفُــوسَ عَلَــى المَكــارِهِ كُلِّهَــا
شَوْقــاً إلــى مَــا فِــيهِ مِــنْ إحْسَــانِ

١- قال شيخنا بدر بن علي العتيبي -أدام اللهُ نفعَه- معلِّقًا على هذا الموطن: «أيضًا، مِن تعلُّق الصبر بالعِلم أنَّ الصبرَ لا يتحقق إلَّا ممَّن كمُل علمُه بالله وأسمائه وصفاته، فهو يَعلم بأن كل ما يصيبه من الله، مع إيمانه بلُطفه سبحانه وحكمته ورحمته وعدله، وهذا ممَّا يُعظِّم الصبرَ في قلبه».

عِظمُ الأجر لمن حقق عِبادة الصبر

ومن الإحسان المترتِّب على الصبر دخولُ الجنة، كما في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[الفرقان: ٧٥]، أي: بما تحمَّلوا من الصَّبر في الوصول إلى مرضاة الله.[١]

قال بعضُ السلف: «**جعل اللهُ رأسَ أمورِ العباد العقل، ودليلَهم العِلم، وسائقَهم العمل، ومقويهم على ذلك الصبر**».[٢]

والصبر: هو الـحَبْسُ، لغةً.

وفي الشرع: حَبْسُ النَّفْس على حُكم الله.

وحكمُ الله نوعان: شرعيٌّ، وقدَرِيٌّ.

والـحُكمُ الشرعيُّ أمران: فعل طاعة، وترك معصية.

فيكون الصبرُ على الحُكم الشرعيِّ بحَبْس النَّفْسِ على فعل الطاعة وترك المعصية.

وأما الحُكم القدَريُّ: فالصبرُ عليه يكون بحَبْس النَّفْسِ عن الجَزَع، واللِّسان عن التَشَكِّي، والجوارح عن لَطْمِ الخُدود وشَقِّ الجُيوب.[٣]

١- «المفردات في غريب القرآن» (ص ٤٧٤).

٢- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٣٨).

٣- انظر: «شرح منظومة السير إلى الله والدار الآخرة» للصغير بن عمار (ص ٩٨).

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، **فإذا قام بها العبدُ كما ينبغي انقلَبَت المِحْنَةُ في حقِّه مِنْحَةً، واستحالَت البليَّةُ عَطِيَّةً، وصار المكروهُ محبوبًا»**.

فلا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلاَّ من صَبَر، والصبر خُلُق من الأخلاق التي تَتربَّى وتَنْمو بالمِران والدَّوام، فواجبٌ على المكلَّف أن يجعلَ تَربيةَ نفسِه عليه وتَعويدَها به مِن أكبرِ همِّه، إذ لا يقوم بالتكاليف الشَّرعية إلَّا به، **بل ولا يستطيعُ الحياةَ في هذه الدار الدُّنيا الموضوعةِ على المِحنَة والابتلاء إلا إذا تمسك بسببه.**[٢]

وقيل[٣]: «مَن جَزِعَ مِن مصائبِ الدنيا تحَوَّلَت مُصيبتُه في دينه».

وقال الحسين بن عبد الرحمن:[٤]

فلـــم أَرَ أوْفَـــى للـــبلاء مِـــنَ التُّـــقَى

ولـــم أَرَ للمكـــروه أشـــفى مِـــنَ الصَّـــبرِ

وروي عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قولُه: **«ألا إنَّ الصبرَ مِن الإيمان بمَنزلة الرأس من**

١- «الوابل الصيب» (ص ٥).

٢- «آثار ابن باديس» (١/ ٥٠٠).

٣- «حلية الأولياء» (٩/ ٣٢٧).

٤- «الصبر والثواب عليه» (٨٨).

الجسد، **فإذا قُطِعَ الرأسُ بادَ الجسدُ**»، ثم رَفع صوتَه فقال: «ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له!»[١]. وسبب ذلك -كما قال بعض أهل العلم[٢]- راجع إلى أنَّ الصبرَ يدخُلُ في كلِّ باب، بل في كلِّ مسألة مِن مسائل الدين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «**وإذا تأملت مراتب الكمال المكتَسب في العالم، رأيتها كلها منوطةً بالصبر**، وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيته كله من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار كله صبر ساعة... وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حُفِظَت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، فهو الفاروق الأكبر، والترياق الأعظم...».

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه اللهُ إلَّا لعَبدٍ كريم». وما أحسَنَ قولَ وهب بنِ مُنَبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه أصاب البِرَّ: سخاوة النفس، والصبر على الأذى، وطِيب الكلام».[٥]

١- رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٥)، وابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٨).

٢- انظر: «عدة الصابرين» (ص ١١١).

٣- «زاد المعاد» (٤/ ٣٠٥).

٤- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٦). وانظر: «عدة الصابرين» (ص ٩٥).

٥- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (٣٨).

فوائد الـمِحَن والبلايا

للبلاء فوائدُ تُسلِّي من عَرَفها، ومِنَحٌ تَشرَحُ صَدرَ مَن عَقَلها، جاءت مبثوثةً في نصوص الكتاب والسنة، ومن أحسن من استنبطها العلامة العِزِّ بنِ عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في رسالة له نافعة تكلَّم فيها على فوائد المِحَن والرَّزايا[١]، قال فيها[٢]: «**للمصائب والبلايا والمِحَن والرَّزايا فوائدُ تختلفُ باختلافِ رُتَبِ الناس:**

١- طُبعت هذه الرسالة في دار الفكر بعنوان: «**الفتن والبلايا والمحن والرزايا، أو فوائد البلوى والمحن**»، بتحقيق إياد خالد الطبَّاع. ونقل كلامَه من الرسالة المذكورة العلامة جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «محاسن التأويل» (١/ ٤٤٤-٤٤٩).

وممَّن أحسن في هذا الباب الإمام ابن القيم في «زاد المعاد» تحت: «فصل في هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علاج حر المصيبة وحزنها»، فقد أتى فيه بروائع الكَلِم ومَتين العِلم. ونحوُه عند ابن مفلح المقدسي في «الآداب الشرعية» (٢/ ١٨٧-١٩٩).

وفي الباب كتب مستقلة، منها: «تسلية أهل المصائب»، لشمس الدين الـمَنْبِجي (المتوفى: ٧٨٥هـ). انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧/ ٤١).

ولشيخنا طارق بن شيهان الغويري -جعله اللهُ مبارَكًا أينما كان- رسالةٌ بعنوان: «هدي النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحاب المصائب والابتلاء»، بعنايتي وتعليقي.

٢- باختصار وتصرف اقتضاهما المقام، وزياداتٍ أثبتُّها في أول الأمر في الحاشية، ثم رأيتُ إدماجها في النص لأهميتها، وهي أحيانا كالشرح لكلام العِزِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أحدها: معرفة عِزِّ الربوبية وقَهرِها.

والثاني: معرفة ذُلِّ العبودية وكَسرِها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦]، فاعترفوا بأنهم مِلكُه وعَبيده وأنهم راجعون إلى حُكمِه وتدبيره وقضائه وتقديره، لا مَفَرَّ لهم منه، ولا مَحيد لهم عنه.

والثالثة: الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه، ولا مُعتَمَدَ في كشفها إلا عليه، ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[يونس: ١٠٧].

الرابعة: الإنابة إلى الله تعالى، والإقبال عليه، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾[الزمر: ٨].

الخامسة: التضرُّع والدعاء لله جَلَّجَلَالُهُ، ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام: ٦٣].

السادسة: الحِلم ممن صدرت عنه المصيبة، ويختلف ذلك باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، **فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حِلم**.

السابعة: العفو عن جانيها، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى: ٤٠]، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

الثامنة: الصبر عليها، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦]، وفي الحديث: «**ومَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[١].

التاسعة: الفرح بها لأجل فوائدها، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وإِنْ كانُوا لَيَفْرَحُونَ بالبَلَاءِ، كَمَا تَفْرَحُونَ بالرَّخَاءِ**»[٢]. وإنما فرِحوا بها إذ لا وَقْعَ لشِدَّتِها ومَرارَتِها بالنسبة إلى ثَمَرتِها وفائدتِها، كما يَفرَح من عُظَمَت أدْواؤه بشُرب الأَدوية الحاسِمة لها، مع تَـجَرُّعِه لَمرارَتِها.

العاشرة: الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها، كما يشكر المريضُ الطبيبَ القاطعَ لأطرافه، المانعَ من شهواته، لما يتوقع في ذلك من البُرء والشفاء.[٣]

١- رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

٢- رواه أحمد (١١٨٩٣)، وابن ماجه (٤٠٢٤)، وغيرهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٤).

٣- تكلمت في «شرح منظومة السير إلى الله» (١٠٩-١١٣، ١١٧) عن الفرق بين الصبر والرضا والشكر، فأغنى ذلك عن تكراره هنا.

الحادية عشرة: تمحيصُها للذنوب والخطايا، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[الشورى: ٣٠]، وفي الحديث: «**ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا هَمٍّ ولا حُزْنٍ ولا أَذًى ولا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**».[1]

قلت: ووجه الاستدلال من الآية أن بعض أهل العلم قال في معناها: «هي إخبار من الله تعالى بأن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء وخطاياه، وأن الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة».[2]

قال العلامة ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «ما يكون من باب المصائب والآلام فعلى العبد أن يتناوله على أنه **نعمة من الله تعالى، فيها من الأجر والتمحيص، و بها يحصل الرجوع والإنابة إلى الله**، ويكون منها تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية».

١- رواه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣). و«النَّصَب»: التعب، و«الوَصَب»: المرض.

٢- انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥/ ٣٧).

٣- انظر: «الآثار» (١/ ٣٣٨).

الثانية عشرة: رحمةُ أهلِ البلاء ومساعدتُهم على بلواهم. فالناس مُعافى ومُبتلى، فارحموا أهلَ البلاء، واشكُروا اللهَ تعالى على العافية.

الثالثة عشرة: معرفةُ نعمة العافية والشكر عليها. فإن النِّعَم لا تُعرف أقدارُها إلا بعد فَقدها.

الرابعة عشرة: ما أعدَّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثوابِ الآخرة على اختلاف مراتِبها.

الخامسة عشرة: ما في طَيِّها من الفوائد الخفيَّة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦]. وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.[١]

ولما أخذ الجبار سارَّةَ من إبراهيمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان في طَيِّ تلك البلية أن أخدَمها هاجرَ، فولدت إسماعيلَ لإبراهيمَ عليهما الصلاة والسلام، فكان من ذرية إسماعيلَ خاتمُ النبيين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. **فأَعْظِمْ بذلك مِن خَيرٍ كان في طَيِّ تلك البَلِيَّة.**

١- انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٧٣).

السادسة عشرة: إنَّ المصائبَ والشدائدَ تمنع من الأَشَر والبَطَر والفَخْر والـخُـيَلاء والتكبُّر والتجبُّر، فإنَّ نمرود لو كان فقيرا سقيما، فاقِدَ السمع والبصر، لما حاجَّ إبراهيمَ في ربه، لكنْ حَمَلَه بَطَرُ المُلك على ذلك. وقد علَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحاجَّتَه بإتيانه المُلك، ولو ابتُلِيَ فرعونُ بمثل ذلك لما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]، واللهُ يقول: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[التوبة: ٧٤]، وقال: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الشورى: ٢٧]، في آيات كثيرة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**والفَقرُ يَصلُح عليه خَلْق كَثير، والغنى لا يَصلُح عليه إلا أقل منهم**».

والفقراء والضعفاء هم الأولياء وأتباع الأنبياء. ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

وما أحسن قول ابن مفلح المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**لو لا المصائب لبطر العبدُ وبغى وطغى**، فيحميه بها من ذلك ويطهره مما فيه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

١- «الحسنة والسيئة» (ص ٧٣).

٢- «الآداب الشرعية» (٢/ ١٩١).

قـــد يُـــنْعِمُ اللهُ بـــالبَلْوَى وإنْ عَظُمَـــتْ

ويَبْتَلـــي اللهُ بعـــضَ القَـــومِ بـــالنِّعَمِ

واعلَم أن مَرارةَ الدنيا حلاوةُ الآخرة، والعكس بالعكس، ولهذا قال: عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**الدُّنيا سِجْنُ المؤمِنِ، وجَنَّةُ الكافِرِ**»[1]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**حُفَّتِ الجَنَّةُ بالمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ**»[2]، ومعلومٌ أن العاقل مَن احتمل مرارةَ ساعة لحلاوة الأبَد.

وذُلُّ ساعة لعِزِّ الأبد، هذا من لُطف الله به حتى نظر في العواقب والغايات، والناس -إلا من عَصَم اللهُ- آثَروا العاجِل لمشاهدته وضعف الإيمان». انتهى كلام ابن مفلح الـمقدسي.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «**وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال،** فأكثرُهم آثَرَ الحلاوةَ الْمُنْقَطِعة على الحلاوة الدائمة

١- رواه مسلم (٢٩٥٦). قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لـمَّا كانت الدنيا سِجنَ المؤمن وجَنةَ الكافر، فصاحِب السِّجنِ لا يزالُ في بلاء حتى يخرجَ منه، فإذا خَرجَ مِن السِّجنِ أفْضَى إلى الرَّخاء والنَّعيم الدائم، وصاحِبُ الجنَّة إذا خَرَج مِنها وَقعَ في السِّجْنِ الدائم». «غاية النفع» (الرسائل، ١/ ٢٢٣)

٢- رواه مسلم (٢٨٢٢).

٣- «زاد المعاد» (٤/ ١٧٩). وكلامه قبلها قريب من كلام ابن مفلح، رحمهما الله تعالى.

التي لا تزول، ولم يحتمل مَرارَة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذُلَّ ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإنَّ الحاضرَ عنده شهادَةٌ، والمنتظرَ غَيبٌ، والإيمانُ ضعيف، وسُلطانُ الشَّهوة حاكِم، فتَوَلَّدَ من ذلك إيثارُ العاجِلَة، ورَفْضُ الآخِرة، **وهذا حالُ النَّظر الواقِع على ظواهِر الأمور، وأَوائلِها ومبادئها، وأما النَّظرُ الثاقِبُ الذي يَـخْرِقُ حُجُبَ العاجِلَة، ويُـجاوِزُه إلى العَواقِب والغايات، فله شأن آخر**».

فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله ﷻ، وحال العافية والنَّعماء صارِفَةٌ للعبد عن الله تعالى، ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ ﴾[يونس: ١٢]، فلأجل ذلك تقلَّلوا في المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك، ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى والإقبال عليه.

قلت: فيا عبدَ الله! اعرِف ربك في الرخاء، يَعرِفْك في الشدة، ولا تكن كهذا الذي لا يشكر عند الرخاء، ويشكو ويجزع إذا نزل البلاء! قال تعالى:

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].[١]

وقد روي عن عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قوله: «**يوشِكُ أنْ يُفضِيَ بالصابر البلاءُ إلى الرَّخاء، وبالفاجر الرَّخاءُ إلى البلاء**».[٢]

السابعة عشرة: الرضا الموجِبُ لِرضوان الله تعالى. فإنَّ المصائبَ تَنزل بالبَرِّ والفاجِر، فمَن سَخِطها فله السَّخَطُ وخُسرانُ الدنيا والآخرة، ومَن رَضِيَها فله الرِّضا.

والرِّضا أفضلُ من الجنة وما فيها لقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[التوبة: ٧٢]، أي من جَنَّاتِ عَدْنٍ ومساكنِها الطيِّبة[١]». انتهى كلام العلامة العزِّ بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بزيادات وتصرف.

١- تكلَّمت عن هذا بإطالة في كتابي: «شذا العبير شرح قصيدة«أنا الفقير»»، عند ذكر مقام الفقر والـمَسكَنة لله. وانظر: «مشهد الذل والانكسار» في «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٧)، و«اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ١٣٥)، وله في الباب رسالة بعنوان «الذل والانكسار للعزيز الجبار» ضمن «مجموع الرسائل» (١/ ٢٧٥).

٢- «الصبر والثواب عليه» (٧٤).

سؤال الله العافية وعدم التعرُض للبلاء والنهي عن سؤال الصبر ابتداءً

إنَّ الكلام على الصبر وما جعل الله فيه من العواقب الحسنة إنما يكون لمن نزل به، ولا يعني هذا سؤالَه أو التعرُّضَ له، فإنَّ مَن رُزِقَ العافية في دِينه ودنياه فقد سَلِم.

وأما عن حقيقة العافية، فقد قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وقد كثُرت الأحاديثُ في الأمر بسؤال العافية، **وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات** في البدن والباطن، في الدِّين والدنيا والآخرة».

ولـمَّا تكلم ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على فوائد البلاء في شرح حديث «**احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْك**»، بيَّن أن العبدَ لا يتعرض لأسباب البلاء، ومن هنا كان طائفة من السَّلف كابنِ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيرِه يأمرون من يخاف أن لا يصبِر على

=

١- قال ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» (ص ٣٤٣): «﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطِب إلَّا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، **فرِضا ربِّ الأرض والسماوات، أكبرُ من نعيم الجنات**».

٢- «شرح مسلم» (١٢/ ٤٦).

ما يخالِف هَواه مما يختار الله له أن يقول في استخارته: «**في عافية**»، فإنَّه قد يختار له البلاء ولا يصبر عليه.[١]

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «**فلا ينبغي للعبد أن يتعرَّض للبلاء، ولكن يسأل الله العافية وأن يرزقه الرِّضا بالبلاء إنَّ قُدِّر له البلاء**».

ولهذا جاءت الأحاديث الصحاح تأمر بسؤال الله العافيةَ، ومن ذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَلُوا اللهَ العافِيَةَ، فَلَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ قَطُّ بَعْدَ اليَقِينِ أَفْضَلَ مِنَ العافِيَةِ**»[٣]، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في دعائه: «**اللهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا في الأُمُورِ كُلِّهَا، وأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنيا، وعَذَابِ الآخِرَةِ**»[٤]، وأرشَدَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدَ أصحابَه أن يقول: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، وارحَمْنِي، واهدِنِي، وعافِنِي وارزُقْنِي**»[٥].

١- انظر: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس»، «رسائل ابن رجب» (٣/ ١٤٨).

٢- «مجموع الرسائل» (١/ ١٧٦).

٣- رواه أحمد في «المسند» (٥)، وقال المحققون: إسناده صحيح.

٤- رواه أحمد في «المسند» (١٧٦٢٨)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٩٠٧).

٥- رواه مسلم (٢٦٩٧).

ويُروى أنَّ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مرَّ برجُل يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الصَّبْرَ»، فقال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**سَأَلْتَ اللهَ البَلاَءَ، فَسَلْهُ العَافِيَةَ**».[1]

١- رواه الترمذي (٣٥٢٧)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٢٨٧) (**بَابُ الْحُثِّ عَلَى الدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ**)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٥٢٠). وانظر: «الوابل الصيب» (ص ١٤٨).

معنى الاستعاذة بالله من: «جَهْدِ البَلاء»

ولهذا كان رَسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَتعَوَّذُ مِنْ «جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ».[١]

و«جَهْدُ البَلاء»: ما يُـجهِدُ مِن البَلاء، حتى قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «هو قِلَّة المال، وكثرة العِيال».

وقال ابن بطال وغيرُه: «جَهْدُ البَلاء»: كُلُّ ما أَصابَ المَرءَ مِن شِدَّةٍ ومَشقَّة، وما لا طاقةَ له بِحَمْلِه ولا يَـقْدِرُ على دَفْعِه.

و«دَرَكُ الشَّقاء»: ما يُدْرِكُ العبدَ مِن الشَّقاءِ في الدنيا والدين.

و«سوءُ القَضاء»: في الدين والدنيا، والبدن والمال والأهل، وقد يكون ذلك في الخاتمة.

و«شَمَاتَـةُ الأَعْداء»: فَرَحُ العَدُوِّ ببَلِيَّة تَنزِلُ بعَدُوِّه.[٢]

قلت: ويدخل في هذا سؤال الله المطالب العالية التي قد لا تتحقق إلَّا بتمحيص الإنسان، وابتلائه بعظيم الامتحان، ومِن هذا قولُه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «وأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لا يَنْفَدُ، وأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ،

١- رواه البخاري (٦٣٤٧)، ومسلم (٢٧٠٧).

٢- انظر: «الاستذكار» (٢/ ٥٢٤)، و«شرح ابن بطال على البخاري» (١٠/ ١١٠)، و«شرح مسلم» (١٧/ ٣١)، و«فتح الباري» (١١/ ١٤٨).

وأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ، وأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الـموْتِ، وأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ، والشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ».[١]

فلما سأل الله أشرف المنازل، وأعلى المقامات، والنظر إلى وجه رب الأرض والسماوات، عَلِمَ أنَّ ذلك لن يكون إلا بالتمحيص والابتلاء، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرشِدًا أمَّتَه، رأفةً ورَحمَةً بهم: **«فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»**.

ومعنى: **«ضَرَّاء مُضِرَّة»**: الضُّرُّ الذي لم يصبر عليه.[٢]

قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «قوله: **«مُضِرَّة»** إنما قيَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لأن الضَّرَّاءَ ربما كانت نافعةً آجِلًا أو عاجِلًا، فلا يَلِيقُ الاستعاذَة منها.

وقوله: **«مُضِلَّة»** وصَفَها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لأنَّ مِن الفِتَنِ ما يكونُ مِن أسبابِ الهِداية، وهي بهذا الاعتبار مما لا يُستعاذُ به. والفِتنة هي الامتحان والاختبار».

١- رواه والنسائي (١٣٠٥)، وأحمد في «المسند» (١٨٣٢٥)، وصححه الألباني في «الكلم الطيب» (١٠٦). وشرحه ابن رجب في رسالة مستقلة مطبوعة مع «مجموع رسائله» (١/ ١٥٣-١٨٧).

٢- انظر: «شرح الطيبي على المشكاة» (٦/ ١٩٣٣).

٣- «نيل الأوطار» (٢/ ٣٤٣)، بتصرف.

وروي أنَّ رَجُلاً كان يسألُ اللهَ ﷻ أن يرزقَه الجهاد والغزو في سبيله، فهتف به هاتف: «**إنك إن غَزَوت، أُسِرْتَ، وإنْ أُسِرْتَ، تَنَصَّرْتَ**».

فلْيَعلَم العبدُ أنَّ اختيارَ الله جَلَّجَلَالُهُ له خيرٌ من اختياره لنفسه، فربما سأل سَيلًا فسال به![١]

١- انظر: «صيد الخاطر» (ص ٨٣، ١٧١).

النهي عن تمني لقاء العدو

وفي «الصحيحين»[١] أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**يا أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، واسْأَلُوا اللهَ العافِيَةَ، فإذَا لَقِيتُمُوهُمْ فاصبِرُوا**».

وفي الحديث فوائد:

- **منها**: النهي عن تمني لقاء العدو لما فيه العُجب، وما قد يؤول إليه الأمر على وجه لا يصبر معه العبد.
- **ومنها**: الإرشاد إلى سؤال الله العافية، وأهمية ذلك في الرخاء والشدة.
- **ومنها**: الأمر بالصبر إذا نزل البلاء، إذ هو مفتاح الفرج، وانتظار الفرج عبادة، يجد معها العبد من لين القلب، والأنس بالله، وقطع الطمع عن غيره ما يصعب وصفه.

١- البخاري (٣٠٢٤)، ومسلم (١٧٤٢).

لماذا لا نسأل اللهَ الصبرَ في الدعاء بإطلاق؟

قد يقول قائل: **أليس الصبرُ يكون كذلك على فعل الأوامر وترك النواهي؟ فلماذا لا نُطلِقُ القولَ بسؤال الله الصبر في الدعاء؟**

والجواب -والله أعلم- من أوجه:

أوَّلُها: إنَّ الصبر إذا أُطلِقَ عند الناس انصرَفت أذهانُهم إلى الصَّبر على الأقدار المؤلمة.

وثانيها: لو كان المقصودُ بالصبر كُلَّ أنواعه -ومنها الصبر على البلاء-، فإذا قلتَ: «اللهم ارزقني الصبر» دخل فيه الصبر على البلاء، وعليه، قد يدخل في النهي الوارد في الحديث. وأما إذا قيَّدت وقلت: «اللهم ارزقني الصبر على فعل الطاعة»، أو «اللهم ارزقني الصبر على ترك المعصية»، جاز هذا الدعاء بهذا القَيد.

وثالثُها: أنَّه إذا نزل البلاء، جاز للمؤمن أن يسأل اللهَ الصبر حينها، كفعل أصحاب طالوت، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٥٠].

اللَّهُم إنِّي أسألُك العافية العامة، لي، ولأحِبَّائي، ولجميع المسلمين.

المصائب نوعان: مصيبة في الدنيا وأخرى في الدِّين

تقدم بيان أن المصائب والابتلاء أمر لازم لكل مؤمن، يُمحِّصُ اللهُ به العباد، ويُكفر به الذنوب، ويرفع به الدرجات.

والمصيبة: كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه. يقال: أصابه إصابة ومُصابة ومُصابا. والمصيبة واحدة المصائب، وهي: النكبة ينكبها الإنسان -وإن صغرت-، وتستعمل في الشر.[1]

والمصائب -عافاني الله وإياك- **نوعان:**

- **مصيبة في الدنيا،**
- **ومصيبة في الدين.**

حقيقة مصيبة الدنيا

وهي التي يعنيها العوام إذا أطلقوا لفظ «المصيبة»، فيدخل فيها كل ما يصيب الإنسان في بدنه، وأهله، وماله، وغير ذلك، مما يتعلَّق بهذه الدنيا، ومن أشدِّه قلة ذات اليد وضَعف الحال وأمراض البدن.

وقد تقدَّم الكلامُ على فوائد هذه المصائب لمن صبر على قضاء الله، وسلم لمولاه، واستقام على شرع الله، وسنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

١- انظر: «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٧٥)، و«تسلية أهل المصائب» للمَنبجي (ص ٩).

ومصائب الدنيا تابعة لها، حالًا ومآلًا، فكما أن الدنيا فانية، فكذلك مصائبها -وإن طالت-، وكما أن الدنيا دار ممر لا مقر، فكذلك مصائبها أبدا لا تستقر، وكما أن الدنيا لا تساوي شيئا إذا قورِنت بالآخرة، فكذلك مصائبها، لأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**مَن تَلَمَّحَ بَحرَ الدنيا**، وعَلِمَ كيف تُتَلَقَّى الأمواجُ، وكيف يُصبَرُ على مُدافَعَة الأيام، **لم يَسْتَهْوِلْ نُزولَ بلاء، ولَم يَفْرَح بِعاجِلِ رَخاء**».

قلت: وفي التنزيل قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد: ٢٢-٢٣].

ومِن جميل الحِكَم ما رُوي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «مَن اشتاقَ إلى الجنة سَلَا عن الشَّهَوات، ومَن أشفَقَ مِن النار رَجَع عن

١- «صيد الخاطر» (ص ١٨٧).

المُحَرَّمات، **ومَن زَهِدَ في الدنيا تَهاون بالمُصيبات**، ومن ارتَـقَب الموت سارَع إلى الـخَيرات».[١]

ومن بدائع ابن الجوزي قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فإيَّاكَ إياكَ أن تَسْتَطِيلَ زمانَ البَلاء، وتَضْجَرَ مِن كَثرة الدعاء، **فإنَّك مُبتَلى بالبَلاء، مُتعبَّدٌ بالصَّبر والدُّعاء**، ولا تَيأَس مِن رَوْحِ الله وإنْ طالَ البَلاء».

قلت: وفي قول ابن الجوزي: «**ولا تَيأَس مِن رَوْحِ الله وإنْ طالَ البَلاء**» إشارَةٌ إلى أنَّ السُّرورَ يَقْصُرُ به الزَّمَن، والكُروب والهُموم سَبَبٌ لطُولِه.[٣]

قال سفيان بن الحارث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَرثي رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أَرِقْـــــتُ فبَـــــاتَ لَيلِـــــي لا يَـــــزُولُ
وليـــلُ أخِـــي المُصِـــيبةِ فيـــهِ طُـــولُ

١- رواه عنه اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح أصول الاعتقاد» (٤/ ٩٢٤).

٢- «صيد الخاطر» (ص ٤٣٩).

علَّق شيخُنا بدر بن علي العتيبي –حفظه الله– على هذا الموطن بقوله: «من لطيف ما يُذكر أنني في زمن مضى ابتُليتُ ببلاء عظيم، وذاتَ مرة وقد بلَغ بي ضيقُ الصدر مبلَغه، رفعتُ رأسي ناظرا إلى الجدار، إلا وقد كُتب عليه: (ستكون هذه اللحظات مجرَّدَ ذكريات)، فسُرّي عني ما في من ضيق، وأيقنتُ أن البلاء سيزول يوما ما».

٣- انظر: «أضواء البيان» (٥/ ٢٧٩).

وقال الآخر:

فقِصَـــــارُهُنَّ مـــعَ الهُمــــومِ طَويلَـــةٌ
وطِوَالُــــهُنَّ مـــعَ السُّـــرُورِ قِصَـــارُ

وما أجملَ قولَ الإمام أبي الوليد الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُسَلِّيًا ولَدَيه: «**ولا تستَعظِما مِن حَوادِثِ الأيَّام شيئًا، فكُلُّ أمرٍ ينقَرِضُ حَقِير، وكُلُّ كَبِير لا يَدُومُ صَغِير، وكُلُّ أَمرٍ يَنقَضِي قَصِير**».[1]

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وأما مصالحُ الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدِّين، **فمن انفرطت عليه مصالحُ دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيَعُ وأضيَعُ**».

وفي «نونيَّة القحطاني» (ص ٤٣):

الــــدِّينُ رَأْسُ الـمـــالِ فاسْتَمْسِـــك بـــهِ
فضَــــيَاعُهُ مِـــن أَعْظَـــمِ الــــخُسْرانِ

١- «الوصية الولدية» (ص ٢٩). وانظر شرحي عليها: «بُغية الناجي».

٢- «الجواب الكافي» (ص ١٦٩).

فوائد من حديث: «يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة»

وتأمل هذا الحديث العظيم، فعَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنيا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ[1] فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا، واللهِ يَا رَبِّ، ويُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجَنَّةِ، فيُقَالُ لَهُ: يا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيَقُولُ: لا، واللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ». [2]

وفي هذا الحديث فوائدُ:

- **منها**: أنَّ الدنيا يتنعَّم فيها الكافر والمؤمن، لأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وليس من حُرِمها قد هان على الله، ولا مَن أُعطيَها كريم عند الله، بل قد يُعطيها أعداءَه، ويحفظ اللهُ منها أولياءَه.
- **ومنها**: أنَّ نعيم الدنيا -مهما عَظُم- لا يُساوي شيئا إذا لم تَصحبهُ طاعةُ الله.
- **ومنها**: أنَّ غَمسَةً واحدةً في النار تُنسي كل نعيم في الدنيا.

١- أي: فيُغمَسُ.

٢- رواه مسلم (٢٨٠٧).

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذا وهو شيء يسير، **فكيف بمن يكون مخلداً فيها والعياذ بالله أبد الآبدين؟!**».

- **ومنها:** أنَّ غَمسَةً واحدةً في الجنَّة تُنسي كل مصائب الدنيا.

يقول الإمام أبو الوليد الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهو ينصح ولديه-[٢]: «**فإنَّه لا ينفعُ خيرٌ بعده خلودٌ في النار، ولا يضُرُّ ضَيرٌ بعده الخلودُ في الجنة**».

فما هي إلا ساعةٌ ثم تَنْقَضي
ويذهَبُ هذا كُلُّه ويَزُولُ

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لا يجد أهلُ الجنَّةِ مِن أَلَمِ نَصَبِ الدنيا شيئًا، بل يَنْقَلِبُ راحةً أبدًا.

جميعُ آلامِ لَسْعِ النَّحْلِ يُذْهِبُها
ما يَجْتَني الـمُجْتَنِي مِن لَذَّةِ العَسَلِ

١- «شرح رياض الصالحين» (٣/ ٣٦٤).

٢- «النصيحة الولدية» (ص ١١).

٣- «غاية النفع» (الرسائل، ١/ ٢٢٣)، بتصرف.

من طَمِـعَ في الوُصول إلى المعالي، صَبرَ على مُواصَلَة نَصَبِ النهار بسهر الليالي.[١]

ومن أراد غدًا قُربَنا، فليَصبرِ اليومَ على أَلَـمِ ضَرْبِنا، فما يُحِسُّ بأَلَـمٍ مَن صَدَقَ في حُبِّنـا.

فلابد من البَلوى والاختبار، ليتبَّين الصادِقُ اليومَ من الكاذِب، ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾[محمد: ٣١].

مراتب الدنيا لا تُنالُ إلا بالصَّبر على البَلاء في طَلَبِها والمُجاهَدة، فكيفَ مَن أرادَ مَقْعَدَ صِدْقٍ عند مَليكٍ مُقْتَدِر؟!».

- **ومنها**: أنَّ الدنيا إذا فاتت، فإنَّ في الآخرةِ نعيمًا أكبر يُنسي بؤسَها، وأما مَن ضيَّع الدين، فقد فاتته الآخرة التي لا تُعوَّض، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]، وقد بيَّن اللهُ كَذِبَ هذه الدَّعْوَى بقوله: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام: ٢٨].

١- تكلمت -بفضل الله- عن هذا الأصل (وهو أن دار الراحة لا تُنالُ بالراحة) في «شرح منظومة السير إلى الله» (ص ٩٤-٩٧)، و«شرح قصيدة «أنا الفقير»».

- **ومنها**: أنَّ المصائبَ -مهما عَظُمت- لا تُساوي شيئا إذا دخل العبد الجنَّة، وتفضَّل الله عليه بأعظم مِنَّة.

إذا صــحَّ منــك الــوِدُّ فالكــلُّ هــيِّنٌ
فكــلُّ الــذي فــوق الــتراب تــرابُ[١]

- **ومنها**: الفرق الكبير بين الدنيا التي لم يرضَها الله لأوليائه، والآخرة التي اختارها الله لأصفيائه، وحكم بالعذاب السَّرمَدي فيها لأعدائه.

والدلائل على هذا أكبر من أن تُحصر -سيما في مثل هذه الورقات-، وحسبي ذكرُ بعض النصوص التي تُوَضِّحُ حقارة الدنيا بالنسبة للآخرة[٢]، وإن كان العبدُ لن يَصلَ للآخرة إلَّا بالعمل والاجتهاد في هذه الدنيا.

١- قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فمن تحقَّق أنَّ كلَّ مخلوقٍ فوق التراب فهو تراب، فكيف يُقَدِّمُ طاعةَ من هو تراب على طاعة ربِّ الأرباب؟ أم كيف يُرضي التراب بسَخَط الملك الوهَّاب، إن هذا لشيءٌ عُجاب!**». «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (الرسائل، ٣/ ١٤٢).

٢- المراجع في هذا كثيرة وشهيرة. انظر مثلا: «رياض الصالحين» (١/ ١٦١-١٦٨).

نصوص في ذمّ الدنيا مقارنة بالآخرة

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[فاطر: ٥]، ويقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف: ٣٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فأخبَر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعَله مُشاهَدًا لأولي البصائر، وأنها لَعِبٌ ولَـهْوٌ تلهُو بها النفوس، وتلعَب بها الأبدان...

ثم أخبر أنها زينة زُيِّنت للعيون وللنفوس، فأخَذَت بالعيون والنفوس استحسانًا ومحبة، **ولو باشَرت القُلوبُ معرفةَ حقيقَتِها ومآلِها ومَصيرِها لأَبغضَتها، ولآثَرَت عليها الآخِرة، ولما آثَرَتها على الآجِل الدائم، الذي هو خيرٌ وأَبْقَى**».

١- «عدة الصابرين» (ص ١٦٩).

وفي قصيدة ابن رجب المليحة في «ذم قسوة القلب»[1] قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

معائِـــــبُ هــــذِه الـــــدنيا كَثيـــــرٌ

وأنـــــتَ علــــى مَحبَّتِهـــا طُبِعْتَـــا

قال بعضهم: «يا هذا! الدُّنيا وراءَك، والآخرة أمامَك، والطَّلَبُ لما وراءك هزيمة».[2]

وقال بعضُ السلف[3]: «**مَن عَرَف الموتَ هانَت عليه مَصائبُ الدُّنيا وغُمومُها**».

فإنَّ الإنسان لا ينفَكُّ عن حالتَين: ضِيقٍ، وسَعة:

- **فإنْ كان في حالِ ضِيق ومِحنة:** فذِكرُ الموت يُسَهِّل عليه بعضَ ما هو فيه، فإنَّه لا يدُوم، والموتُ أصعَبُ منه.
- **أو في حالِ نعمة وسَعة:** فذِكرُ الموت يمنعُه من الاغترار بها والسُّكون إليها.

١- «الرسائل» (١/ ٢٦٨).

٢- انظر: «موارد الظمآن لدروس الزمان» (٤/ ٦٤٨)، و«إيقاظ أولي الهمم العالية» (ص ١٥)، وكلاهما لعبد العزيز السلمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣- «حلية الأولياء» (٦/ ٤٤).

وأما الأحاديث، فهي أكثرُ من أن تُحصر في موضع واحد، ومن ذلك قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ**»[١]، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انْظُرُوا إلى مَنْ هُوَ أسْفَلَ مِنْكُمْ ولا تَنْظُرُوا إلى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أجْدَرُ أَنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله عليكم**»[٢]، وفي رواية البخاري: «**إذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إلى مَنْ فُضِّلَ عليه فِي المَالِ والخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هُوَ أسْفَلَ مِنْهُ**».

قلت: وهذا الكلام خاص بالدُّنيا الدنيَّة، **وأما الآخرة الغالية، فإنه لا يصلحُ لها إلا أصحاب الهِمم العالية.**[٣]

يقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «انظُر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدِّين والعلم والفضائل إلى من فوقك».

١- رواه البخاري (٦٤١٣)، ومسلم (١٨٠٥).

٢- رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).

٣- تكلمت على الهمَّة العالية ونماذجَ صالحة منها في كتابي: «سبيل النجاة في فضائل العلم والعمل»، يسَّر اللهُ طبعَه.

٤- «رسائل ابن حزم» (١/ ٣٤٤).

ونحوُه قولُ العلامة عبد الصمد كنُّون رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**القناعة مطلوبةٌ في أمور الدُّنيا فقط، وأمّا في أمور الآخرة أو في زيادة العِلم أو الترقِّي في المعرفة، فمذمومة**، ولذلك قيل: القناعة مِن الله حِرمان».

وقارِن هذا بحال الأحمق، الذي إنْ كان فوقَك حقرَك، وإنْ كان دونَك غَمَرك.[٢]

ومن الأحاديث في بيان قَدر الدُّنيا: قولُ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «**لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[٣].

قال ابن القيم في «النونية» (ص ٣٠٨) ناظمًا هذا المعنى[٤]:

لـــو ســـاوَتِ الـــدُّنيا جَنـــاحَ بَعُوضَـــةٍ

لَـــم يَسْـــقِ مِنهـــا الـــرَّبُّ ذا الكُفْـــرانِ

١- «النسق الغالي والنفس العالى شرح نصحية أبي العباس الهلالى» (ص ١٩٣).

٢- انظر: «روضة العقلاء» لابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص ١٢٣).

٣- رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٨٦).

٤- وانظر له: «الفوائد» (ص ٤٢).

لكِنَّهـــــــا واللهِ أَحِقَـــــــرُ عِنــــــدَهُ

مِـــن ذَا الـــجَنَاحِ القَاصِـــرِ الطَّيَـــرانِ

طُبِعَـــتْ علـــى كَـــدَرٍ فكيـــفَ تَنالُـــهَا

صَـــفْوًا أهَـــذا قَـــطٌّ في الإِمْكـــانِ

وعن الضَّحاك بن سفيانَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال له: «**يا ضحَّاكُ! ما طعَامُك؟**». قال: «يا رسولَ الله! اللَّحْمُ واللَّبَنُ». قال: «**ثمَّ يصيرُ إلى ماذا؟**».

قال: «إلى ما قَدْ علِمْتَ». قال: «**فإنَّ الله تعالى ضَرَب ما يَخْرُج مِن ابْنِ آدَمَ مَثلاً لِلدنْيا**».[1]

وكفى بهذا زاجِرًا لَمِن عظَّم مصائب الدنيا، ولم يُبال بضياع دينه، فإنَّ الذي فاته منها لا يعدو أن يكون من جنس المَثل المضروب في هذا الحديث! ولا أظن عاقلًا يتأسَّفُ على هذا، فضلاً على إيثارِه على ما عند الله.

١- رواه أحمد في «المسند» (١٥٧٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٤٢).

الدنيا لا تذم بإطلاق

الدنيا عبارة عن كُلِّ ما يشغَل عن الله قبل الموت، فكُلَّما لك فيه حظٌّ وغرَضٌ ونصيبٌ وشهوةٌ ولذَّةٌ في عاجلِ الحال قبل الوفاة، فهي الدنيا.

وليس كُلُّ ذلك مذمومًا، بل المذموم المنهيُّ عن محبته هو كُلُّ ما فيه حظٌّ عاجلٌ لا ثمرةَ له في الآخرة.

قال محمود الورَّاق:[١]

لا تُتْبِعِ الدُّنيا وأيَّامَهَا
ذَمًّا وإنْ دَارَتْ بِكَ الدَّائِرَهْ

مِنْ شَرَفِ الدُّنيا ومِنْ فَضْلِهَا
أَنَّ بِهَا تُسْتَدْرَكُ الآخِرَهْ

ولهذا، كان مِن دعاء الصالحين: «**اللهم زهِّدنا في الدُّنيا، ووسِّع علينا منها، ولا تَزْوِها عنا، فترغِّبنا فيها**».

١- انظر: «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ١٣١).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس مِن حُبِّك للدُّنيا طلبُك ما يصلِحُك فيها».[١]

قال بعضُ الـحُكماء: «ليس مِن الرَّغْبَةِ في الدُّنيا اكتِسابُ ما يَصُونُ العِرْضَ فِيهَا». وقال بعضُ الأُدباء: «ليس مِن الـحِرْصِ اجتِلَابُ ما يَقُوتُ البَدَنَ».[٢]

١- انظر: «جامع العلوم» (٢/ ٨٦٣، ٨٧٨). ولا يفوتك -أيها القارئ الكريم- ما ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٤٥-٩٠٤) في شرح حديث سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**ازهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّكَ الله، وازهَدْ فيمَا في أيدي النَّاسِ يُحبَّكَ النَّاسُ**»، فإنَّ فيه من متين العلم، ولطيف الفوائد، ما يَعِزُّ نظيره.

ومن ذلك تفصيله للقدر المذموم من الدنيا، مدلِّلًا على ذلك من النصوص الشرعية، مع ما يُتقنه من تتبع الآثار السلفية. أسأل الله أن يَجزي له المثوبة، وأن يجمعنا به في دار كرامته، مع نبيِّنا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ. آمين.

٢- انظر: «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ١٣١).

روى ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواضعَ من كتبه[١] أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سَمِعَ رجُلاً يَسُبُّ الدُّنيا، فقال له: «**إنَّها لَدارُ صِدْقٍ لِـمَن صَدَّقَها، ودارُ عافِيَةٍ لمنْ فَهِمَ عنها، ودارُ غِنًى لمن تَزَوَّدَ منها**، ومَسْجِدُ أحِبَّاءِ الله عَزَّوَجَلَّ، ومَهْبِطُ وَحْيِهِ، ومُصَلَّى ملائِكتِه، ومَتْجَرُ أَوْلِيَائِه، اكْتَسَبوا فيها الرَّحْمة، ورَبِحوا فيها الجنَّة، فمَن ذا يَذُمُّ الدنيا، وقد آذنَتْ بفِراقِها، ونادَتْ بينها، ونَعَتْ نَفْسَها وأهْلَها، فمَثَّـلَت ببلَائِها البَلَاء، وشَوَّقَت بِسُرُورِها إلى السُّرُور، فذَمَّهَا قَوْمٌ عند النَّدَامَة، وحَمِدَهَا آخَرُونَ حَدَّثَتْهُم فصَدَّقُوا، وذَكَّرَتْهُمْ فذَكَرُوا، فيا أَيُّهَا الْمُعْتَلُّ بالدنيا، الـمُغْتَرُّ بِغُرُورِها، متى اسْتَهْوَتْكَ الدنيا؟ بل متى غَرَّتْكَ؟ أَلِمَضَاجِعِ آبَائِكَ مِنَ الثَّرَى؟ أم بمَصَارِعِ أُمَّهَاتِكَ مِنَ البِلَى؟ ...» إلى آخر ما قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

علَّق على هذا الأثر ابن رجب فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «بيَّن أميرُ المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ الدُّنيا لا تُذَمُّ مطلقاً، وأنَّها تُحمدُ بالنِّسبة إلى من تزوَّد منها الأعمال

١- انظر: «ذم الدنيا» (١٤٧)، و«الزهد» (٢١٠)، و«إصلاح المال» (١٠٨).

ومثل هذه الآثار -كغيرها- أنقلها وأعزوها لأصولها -ما استطعت- بلا حُكم عليها، بشرط ألا يكون في معناها ما يُستنكَر، ومن شاء معرفة درجتها من الصحة، فليراجِع كتب التخاريج.

٢- «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٨٠).

الصالحة، وأنَّ فيها مساجدَ الأنبياءِ، ومهبطَ الوحي، وهي دار التِّجارة للمؤمنين، اكتسبوا فيها الرَّحمة، وربحوا بها الجَنَّة، فهي نِعمَ الدَّارُ لمن كانت هذه صفَته. وأمَّا ما ذكر من أنَّها تَغُرُّ وتخدَعُ، فإنَّها تُنادي بمواعظها، وتنصحُ بعبرها، وتُبدي عيوبَها بما تُري أهلها من مصارع الهلكى، وتقلُّبِ الأحوال مِنَ الصِّحَّة إلى السَّقم، ومِنَ الشَّبيبة إلى الهرم، ومن الغنى إلى الفقر، ومن العِزِّ إلى الذُّلِّ، لكنَّ مُحِبَّها قد أصمَّه وأعماه حبُّها، فهو لا يسمع نداءها».

نَقِمْــتَ علــى الــدنيا ولا ذَنــْبَ أَسْــلَفَتْ

إليـــكَ فأنـــتَ الظـــالمُ المتُكَـــذِّبُ

وهَبْهَـــا فَتـــاةً هـــلْ عليهـــا جِنَايَـــةٌ

بِمَـــنْ هُـــوَ صَـــبٌّ في هَوَاهَـــا مُعَـــذَّبُ

القدرُ المذمومُ مِن الدنيا

وإذا سمعت بذم الدنيا، فاعلم أنه ليس راجعًا إلى زَمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى قيام الساعة، فإن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جعلهُما ﴿خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[الفرقان: ٦٢].

وليس الذم راجعًا إلى مكانها وهو الأرض، ولا إلى ما أنبته الله فيها مِن الشجر والزرع.

فإن ذلك كلَّه مِن نِعَم الله على عباده لما لهُم فيه من المنافعِ والمصالحِ والاعتبار والاستدلالِ بذلك على وحدانيَّة الله وقدرته وعظمته وحكمته ورحمته بعباده.

قال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾[البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠].

وإنما المذموم أفعالُ بني آدم: من المعاصي الكبائر والصغائر، كالشرك، وترك الصلاة، وترك الزكاة، والكذب على الله ورسوله، أو كراهة ما أنزل الله، أو قتل نفس بغير حق، أو ظلم، أو شهادة زور، أو لهو واستعمال آلاته، ونحو ذلك، مما يُنافي التوحيد أصالةً، أو يُنافي كمالَه الواجبَ أو المُستحب.(١)

١- انظر: «إيقاظ أولي الهمم العالية» (ص ٢٤).

قلت: وجِماع هذا كلِّه قولُ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إلاَّ ذِكْرُ الله، ومَا وَالاَهُ، وعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**».[١]

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «**فكُلُّ عَمَلٍ يعمَلُه العَبدُ ولا يكونُ طاعةً لله، وعِبادَةً، وعملاً صالحًا، فهو باطل**، فإنَّ الدُّنيا ملعونة[٣]، ملعون ما فيها، إلا ما كان لله، وإنْ نالَ بذلك العَمَلِ رِئَاسَةً ومالاً، فغايةُ الـمُتَـرَئِّسِ أنْ يكونَ كفِرعَونَ، وغايةُ الـمُـتَمَوِّلِ أنْ يكونَ كقَارُونَ. وقد ذَكَرَ اللهُ في «سورة القصص» مِن قِصَّةِ فرعونَ وقارونَ ما فيه عِبْرَةٌ لأُولي الأَلْباب».

١- رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص ١٦٩)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٤٤).

٢- «مختصر الفتاوى المصرية» (١/ ١٨٢). وانظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٧٠).

٣- قال شيخنا بدر بن علي العتيبي -بارك اللهُ في جهوده- معلِّقًا على هذا الموطن: «والمراد باللَّعن هنا: الذمُّ، أي: الدنيا مذمومة، لأن اللَّعن له معنيان: خاص وعام، الخاص: الطرد عن رحمة الله، والعام: مطلق الذم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾[الإسراء: ٦٠]، والذي في القرآن إنما هو ذمُّها، فدل على أن من معاني اللَّعن: الذم. سمعت شيخَنا ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ يقول ذلك كله».

حقيقة مصيبة الدين

النوع الثاني من المصائب هو المصيبة في الدين، وهي راجعة إلى أمرين:

- **مصيبة من جهة الشهوات،**
- **أو مصيبة من جهة الشبهات.**

فمن أُصيب بأحدهما أو كليهما فقد هَلك، ولن ينفعه ما أصاب من الدنيا أو مَلَك، وإن كان جنس الشبهة أعظم من جنس الشهوة.

ومَن سَلِم منهما فقد سَلم في الدارين، وحازَ الفوز بلا شك ولا مَين، وكان قلبه سليما، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. والسليم هنا هو الذي سَلِمَ من مَرَضي الشهوة والشبهة، ويدخل فيه الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وأقبح العيوب.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وجِماعُ ذلك هو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك».

١- انظر: «الفتاوى» (١٠/ ٣٣٧)، بتصرف. وتفصيل هذه العبارة عند ابن القيم في مواضع من كتبه منها: «إغاثة اللهفان» (١/ ٧)، و«الجواب الكافي» (ص ١٢٢) ...، ونحوه في «رسائل ابن رجب» (٣/ ٦٥).

ولهذا، كانت الإمامة في الدين لا تُنال إلا بالسلامة من أدران الشهوة، وشكوك الشبهة، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤].

فبالصبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدين، إذْ في الجمع بينهما سَعَادَةُ العَبْدِ، وبفقدهما يفقد العبد سعادته، فإِنَّ القلبَ تَطرُقه طَوارِقُ الشَّهَوات المُخَالفَة لأمر الله، وطَوارِقُ الشُّبُهَات المُخَالفَة لخبَره، **فبالصبر يدْفع الشَّهَوَات، وباليقين يدْفع الشُّبُهَات،** فإِن الشَّهْوَة والشبهةَ مُضادَّتان للدِّين من كل وَجه، فلا يَنْجُو مِن عَذاب الله إلَّا مَن دَفَع شهواتِه بِالصَّبرِ وشُبُهاتِه بِاليَقِين، ولهذا أَخبَر سبحانه عن حُبوط أعمال أهلِ الشَّهَوَات والشُّبُهات، فقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾[التوبة: ٦٩].

فهذا الِاسْتِمتَاعُ بالـخَلاقِ هو استمتاعُهم بِنَصِيبِهم مِن الشَّهَوَات، ثمَّ قَالَ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾، وهذا هو الـخَوْض بالباطل في دينِ الله، وهو خَوْض أهلِ الشُّبُهَات، ثمَّ قال: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[التوبة: ٦٩]، فعَلَّق سبحانه حُبوطَ

الأعْمالِ والخُسران بِاتِّباعِ الشَّهَوَات الَّذِي هُوَ الِاسْتِمْتَاعُ بالـخَلاق، وباتباع الشُّبُهَات الَّذِي هو الْخَوْضُ بِالْبَاطِلِ.(١)

ونحوُه قول الله جَلَّجَلَالُهُ مثنيًا على أنبيائه: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[ص: ٤٥]، فالأيدى: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله.(٢)

ولا سبيل لتحصيل السلامة من الشهوة والشبهة إلا بالعلم النافع الذي يتبعه عمل صالح، ولهذا قال ابنُ سعدي في مطلع «منظومته في القواعد»:

اعلَـــــم هُـــــديتَ أنَّ أفضـــــلَ المِـــــنَنْ

عِلـــمٌ يُزيـــلُ الشَّـــكَّ عنـــكَ والـــدَّرَنْ

فالشك: تورِثُه الشبهات، والدَّرَنُ أي: الوَسَخ: تورِثُه الشهوات.

ومصائب الشهوات والشبهات هي الآفة الكبرى، والرَّزيَّة العُظمى، لأنَّها تُصيبُ المَرءَ في دينه الذي هو أغلى ما يَملِك.

قال السفاريني رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «المصائب تتفاوت، فأعظمها المصيبة في الدين، نعوذ بالله من ذلك، فإنها أعظم من كل مصيبة يصاب بها الإنسان».

١- «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص ١٦)، بتصرف.

٢- انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٧).

والأمراض -كالمصائب- نوعان أيضا:

- أمراض مادية،
- وأمراض روحية.

وهذه الأمراض -أي: الروحية- هي التي بُعِثَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعِلاجِها بالأساس، **وأما طب الأبدان:** فجاء من تكميل شريعته ومقصودا لغيره بحيث إنما يستعمل عند الحاجة إليه، فإذا قدر على الاستغناء عنه كان صَرفُ الهِمَمِ والقِوى إلى علاج القلوب والأرواح، وحفظ صحتها، ودفع أسقامها، وحميتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول، **وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدا، وهي مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة.**[٢]

=

١- «غذاء الألباب» (٢/ ٣٣٤).

٢- انظر: «زاد المعاد» (٤/ ٢٢).

قال السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ثم بعد المصيبة في الدين المصيبة في النفس، ثم في الأهل، وهي مقاربة المصيبة في النفس، ثم المصيبة في المال [٢]، وهذه كالتي قبلها تتفاوت بحسب فخامة المصاب فيه وحقارته، فأعظمُها أَنفَسُها، إلى أن تَصِل إلى شِسْع النَّعل[٣]، والشَّوكَة، فإنها في غايةُ الـحَقارة، فإنَّ حَرَّ المصيبة تَنال من القلب بقَدْر ما فَقَد وتَألَّم، وشِسْعُ النَّعل في غايةِ الخِسَّة».

يُوضِّحُه قولُ الـمَنبجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «**أما المال فيُخْلِفُه اللهُ تعالى، وهو فِداءُ الأَنفُس، والنَّفْسُ فِداءُ الدِّين، والدِّين لا فِداءَ له**».

١- «غذاء الألباب» (٢/ ٣٣٤).

٢- قلت: وكأنَّ السفاريني -تَبعًا للمَنبجي- رتَّب خطر المصائب بحسب مقاصد الشريعة الكبرى، التي تسمى المقاصد الضرورية، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل (أو العرض)، والمال.

وقد تكلَّمت عنها، وعن أدلتها، وترتيبها من جهة الأهمية، في كتابي: «مقصد حفظ النسل».

٣- وهو ما يُمسِك النَّعْلَ بأصابع القدَم.

٤- «تسلية أهل المصائب» (ص ١٩).

أعظم المصائب: مصيبة الدِّين

تقدَّم في الفصل الذي مضى بيان عِظَم مصيبة الدين بالنسبة لِمِحَن الدنيا -وإن جلَّت-، **إذْ المصيبةُ في الدِّين هي نِهايةُ الخُسران الذي لا رِبحَ معه، والحِرمان الذي لا طمع معه.** وسأذكر في هذا الفصل ما يدُلُّ على ذلك في نصوص الوَحيين وكلام أهل العلم. قال الله جَلَّجَلَالُهُ في مُحكم تنزيله مبيِّنًا عقوبةَ المُعْرِضين عن التحاكُم إليه، الراضين بحكم غيره مِن الخَلق: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[النساء: ٦٢]، والمصيبة هنا فضيحتهم إذا أُنزل القرآن بحالهم، **ولا رَيبَ أنَّ هذا أعظمُ المصيبة والإضرار**، فالمصائب التي تصيبهم بما قدَّمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، **أعظمُها مصائب القلب والدِّين**، فيرى المعروفَ منكرًا، والهدى ضلالًا، والرشاد غيًّا، والحقَّ باطلاً، والصلاحَ فسادًا، وهذا من المصيبة التي أصيب بها في قلبه، وهو الطبع الذي أوجبه مخالفةُ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتحكيمُ غيره.[1]

١- انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٨٣)، ونَسبه لابن القيم. ولكنني لم أجده بهذه الصيغة فيما وقفت عليه من كتبه، مع تكرار البحث في مجموع مؤلفاته في «المكتبة الشاملة». وعزاه محقق الكتاب (ط. دار الصميعي) إلى «مختصر الصواعق» (ص ٤٥١)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣٥٣).

آثار الذنوب كثيرة، وأعظمها العقاب في الدِّين

ويَدخُل في هذا كلُّ النصوص التي جاء فيها عقاب من خالف أمرَ الله عقابا دينيًّا، ومن ذلك:[1]

- فساد القلب، والطبع عليه.
- الدخول تحت لعنة الله ولعنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- تضعف القلب، وتضعف فيه تعظيم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.
- تلقي الرعب والخوف في القلب.
- تعمي القلب والبصيرة.
- توجب القطيعة بين العبد وربه.
- تُنسي العبد ربه ونفسه.
- تورِثُ غيرَها من المعاصي والآثام، لأنَّ الذنوب مواريث...

إلى آخر تلك الآثار السيئة الموجبة للهلاك في الدنيا، والخسران في الآخرة.

١- انظر: «الجواب الكافي» لابن القيم، إذْ يُعتبر مِن أحسن ما صُنِّف -في المتأخرين- في آثار الذنوب على أصحابها.

وللشيخ مشهور حسن سلمان كتاب بعنوان: «آثار الذنوب على الأفراد والشعوب».

قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**والله تعالى يعاقِب على الذنب بأحد ثلاثة أشياء:**

أحدها: المؤلمات كالنار وغيرها، وهذا هو الأمر الغالب في ذلك.

وثانيها: تيسير المعصية في شيء آخر فيجتمع على العاصي عقوبتان، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾[الليل: ٨ - ٩]، فجعل العُسرى مُسَبَّبَةً عن المعاصي المتقدمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾[محمد: ٢٥ - ٢٦] الآية، فجعل سبحانه الرِّدَّة مُسَبَّبَةً عن المعصية المذكورة، لأن قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الردة، وقوله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ قالوا: الباء سببية.

وثالثها: تفويت الطاعات لقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف: ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[المائدة: ١٠٨]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الأنعام: ٢١]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على سَلب الفلاح والخير بسبب الأوصاف المذمومة المذكورة في تلك الآيات».

١- «الفروق» (٢/ ١٤٦)، باختصار.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنَّ اللهَ سبحانه يُثِيبُ بأحد ثلاثة أشياء:**

أحدها: الملذات كما في الجنة.

وثانيها: تيسير الطاعات.

وثالثها: تعسير المعاصي.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفَواتُ الطاعة مصيبتُها أعظمُ المصائب**».

وأحسَن شيخُه العِزُّ بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال[1]: «**وكفى بالغفلة عن الله عِقابا**».

وذكر أهلُ العلم أنَّ من مقاصد «سورة التِّين» ذِكرَ **قيمة الانسان وشرَفِه بدِينه، وسُفُوله وهَوانه بتَخَلِّيه عنه**، لذا أقسَمَ بأماكن نُزولِ الوحي.[2]

وهذا فيه بيان أنَّ الإنسان لا قيمة له بلا دِين، إذْ من أجله خُلِق، وعليه يُحاسب، وبه يتَفاضَلُ الـخَلق في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[الحجرات: ١٣].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**من كان الله كنزَه، فقد ظفِرَ بالغِنَى الأكبر**».

١- «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (٢/ ٢٢٦).

٢- «التفسير المختصر» (ص ٥٩٧).

سلامة دينك أهمُّ من كل شيء تملكه، من مال، أو منصب، أو أهل، بل أهم من بقائك على قيد الحياة، ألا ترى قولَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ، فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ**».[٢]

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنِ الْتَمَس رِضا الله بِسَخَط الناسِ، رضيَ الله عنه وأرضى عنهُ الناسَ، ومَنِ التَمَس رِضا الناسِ بِسَخَطِ الله، سخط الله عليه وأَسْخَطَ عليه الناسَ**».[٣]

قال العلامة سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضى الله، **وأن العقوبة قد تكون في الدين،**

=

١- «الرسائل» (١/ ٣٣٨).

٢- رواه أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٤٠٨). وشرح ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث في رسالة بعنوان: «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى». انظر: «رسائل ابن رجب» (٤/ ٣-٩٠).

٣- رواه ابن حبان في «صحيحه» (٢٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٥٠).

٤- «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٢٦).

عِياذًا بالله من ذلك، **فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان.**

وفيه: شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لا سيما في الدين، فإن كثيرًا من الناس يفعل المعاصي ويستهين ولا يرى أثرًا لعقوبتها، ولا يدري المسكينُ بماذا أُصيب، **فقد تكون عقوبته في قلبه**، كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة: ٧٧].

اللَّهُم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

قال ابن القيم[١]: «**ما ضُرِبَ عَبدٌ بعقُوبة أعظَمَ مِن قَسوة القَلب**».

فمهما قست الحياة، فإن قساوة القلب من أعظم المصيبات، ولهذا جعلها الله عقوبة لأعدائه فقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾[المائدة: ١٣]، أي: غليظة، يابسةً عن الإيمان بي، والتوفيق لطاعتي، لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبها تشويق، ولا

١- «الفوائد» (ص ٩٧). ولابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة نافعة بعنوان: «ذم قسوة القلب».

يزعجها تخويف، **وهذا من أعظم العقوبات على العبد**، أن يكون القلب بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى والخير إلا شرا.[١]

وما أجملَ قولَ البُستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونية الحِكَم»:

وكُـــــلُّ كَـــــسْرٍ فـــــإنَّ اللهَ يَجْبُـــــرُهُ
ومـــا لِـــكَسْرِ قَنـــاةِ الـــدِّينِ جُبْـــرانُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ومهما أُصِيبَ المؤمنُ في شيءٍ من دنياه، فإنَّ ذلك ليس بشيءٍ عند سلامة دِينه، الذي هو عِصْمَةُ أمره في دنياه وأخراه».

ومن نفائس «ميميَّة» العلامة حافظ حَكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكُـــلُّ كَســـْرِ الفَتـــى فالـــدِّينُ جـــابِرُهُ
والكَسْـــرُ في الـــدِّينِ صَـــعْبٌ غَيـــرُ مُلْتَـــئِمِ

١- انظر: «تفسير السعدي» (ص ٢٢٥)، وذكر الطبري قولًا آخر في «جامع البيان» (١٠/١٢٧).

٢- «الضياء اللامع» (ص ١١٨).

وقد أوضَح هذا المعنى القاضي شُرَيح رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] لما قال: «**إني لأُصابُ المصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات:**

- أحمد إذ لم يكن أعظم منها،
- وأحمد إذ رزقني الصبر عليها،
- وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب،
- **وأحمد إذ لم يجعلها في ديني**».

مُصيبةُ الدينِ أقوى مِن مُصيبَتِنا

في الأهلِ والنَّفسِ والأموالِ والوَلَدِ

فالكُلُّ يَفْنَى ولا تَفْنَى عَواقِبُهُ

والدِّينُ إنْ ضاعَ فالخُسْرانُ للأَبدِ[٢]

قال صالح الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لابنه: «**يا بُنَيَّ إذا مَرَّ بك يومٌ وليلةٌ قد سَلِمَ فيها دينُك وجسمُك ومالُك وعيالُك، فأَكثِرِ الشكرَ لله تعالى،** فكَم من

١- «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٠٥).

٢- من شعر شيخنا د. بدر بن علي العتيبي -وفقه الله-، وكان قد نشر هذه الأبيات في حسابه على «تويتر».

مسلوبٍ دينُه، ومنزوعٍ مُلكُه، ومهتوكٍ سِترُه، ومقصومٍ ظهرُه في ذلك اليوم وأنت في عافية». [١]

وصدق الشاعر حين قال: [٢]

مَـــا بَـــالُ دِينِـــكَ تَرْضَـــى أَنْ تُدَنِّسَـــهُ
وثوبُـــكَ الـــدَّهْرَ مَغْسُـــولٌ مِـــنَ الـــدَّنَسِ

واعلَم -أصلَح اللهُ دِينك ودنياك- أنَّ العقوباتِ أنواع كثيرة: [٣]

- **منها: ما يتعلق بالدِّين، وهي أشدها، لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان، أما هذه، فلا يتنبه لها إلا من وفقه الله**، وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي، فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[المائدة: ٤٩].

١- «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٣٢٥).

٢- انظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ٣٢٩)، و«بُستان الواعظين ورياض السامعين» لابن الـجوزي (ص ١٦٥).

٣- «القول المفيد» (٢/ ١١٧).

- **ومنها**: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.
- **ومنها**: العقوبة بالأهل، كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.
- **ومنها**: العقوبة بالمال، كنقصه أو تلفه وغير ذلك.

ولذا قيل:[1]

أبُنَـــيَّ إنَّ مِـــن الرِّجـــالِ بَهيمَـــةً
في صُـــورَةِ الرَّجُـــلِ السَّـــمِيعِ الــمُبْصِرِ
فَطِـــنٌ بِكُـــلِّ مُصِـــيبةٍ في مـــالِهِ
وإذا يُصـــابُ بِدينِـــهِ لـــم يَشْـــعُرِ

قال السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: « فإذا رأيت إنسانا لا يبالي بما أصابه في دينه من ارتكاب الذنوب والخطايا وفَوات الجمعة والجماعة وأوقات الطاعات **فاعلم أنه ميت لا يحس بألم المصيبة،** ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[الروم: ٥٢]».

قلت: وهؤلاء داخلون في قول الله جلَّ شأنه: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[الروم: ٧].

١- انظر: «روضة العقلاء» (ص ١٢٢). ونسبها الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تاريخ بغداد» (١٨/ ٩٠) إلى ابن بطة العكبري.

٢- «غذاء الألباب» (٢/ ٣٣٤).

قال ابن خالَوَيهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ما كان أعرَفَهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا. ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾».

فإنَّ النفوس إذا لم تتوقع حياةَ الآخرة ودوامَها كانت آلامُ الدنيا ومتاعبُها لا تُطاق، ولا تجد لاحتمالها سبيلا، لأنَّها ما قَبِلت تلك الآلام واحتملَتها إلا لأنها تُوقِنُ بسَعادةٍ أخرى وراء ما تُقَاسي من المتاعب في هذه الحياة.[٢]

قلت: وفي الحديث: «**إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ كُلَّ عَالِمٍ بالدُّنيا جَاهِلٍ بالآخِرَة**».[٣]

وقال بعض الحكماء: «**مَن تهاوَن بالدِّينِ هان، ومَن غالَب الحقَّ لان**».[٤]

وروي في الحديث: «**وإنَّ الـمَسْلُوبَ مَنْ سُلب دِينَهُ**».[٥]

١- نقلا عن «تفسير القرطبي» (١٤/ ٨).

٢- انظر: «تفسير المراغي» (٢١/ ٢٩).

٣- «صحيح الجامع» (١٨٧٩). وانظر: «الصحيحة» (١٩٥)، وكلام الألباني على معنى الحديث.

٤- «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ١٠٣).

٥- وإسناده ضعيف. انظر: «المطالب العالية» (٣١٣٤).

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ متكلِّمًا عن الذي لا يُبالي بنُقصان دينه وعباداته[١]:

«ثم لعله (أي: هذا المُقَصِّر) لا يفطن لشأنه، **ولا يشعر بخُسرانه، وقد خَسِر الدنيا والآخرة، ويَفطِنُ لليسير من ماله إنْ وَهَى واختل**».

أَرى رِجالاً بأَدْنى الدِّينِ قدْ قَنَعُوا
ولا أراهُمْ رضُوا في العَيشِ بالدُّونِ

فاستغنِ بالله عنْ دنيا الملوكِ كمَا
استغنَى الملوكُ بدنياهُمْ عنِ الدِّينِ

وروي أنَّ العلاءَ الحضرميَّ وفد على منذر بن ساوي، فقال له: «**يا منذر! إنك عظيمُ العقل في الدنيا، فلا تَصْغَرَنَّ عن الآخرة**».[٢]

١- «أدب الدنيا والدين» (ص ١٠٣).

٢- انظر: «الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ» (٥/ ٢٢٥).

شرح حديث: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا»

بعد هذا البيان يَظهرُ لنا جليًّا معنى قولِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في دعائه الجامع الَّذي كان قلَّما يقومُ مِن مَجلِسٍ حتى يدعوَ به، وهو قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، ومِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، ومِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، ومَتِّعْنَا بأَسْمَاعِنَا وأَبْصَارِنَا وقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، واجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، واجْعَلْ ثَأْرَنَا على مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، ولا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، ولا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا، ولا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا**».[١]

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «**"ولا تجعل مصيبتنا في ديننا"**: ولا تصبنا بما ينقص ديننا مِن أكل الحرام واعتقاد سوء، أو فَتْرَةٍ في العِبادة. وقوله: **"ولا تجعل الدنيا أكبر همنا"**: فيه أن قليلاً من الهم لابد منه في أمر المعاش الـمُرَخَّص، بل مُسْتَحَب».

١- رواه الترمذي (٣٥٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٣٤)، بلفظ قريب، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٨).

٢- «شرح المشكاة» (٦/ ١٩٢٨)، بتصرف يسير.

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**«ولا مبلغ علمنا»** أي: غايةَ عِلمنا، فلا نعلم ولا نتفكر إلا في أمور الدنيا، بل اجعلنا متفكرين في أحوال الآخرة، متفحصين من العلوم التي تتعلق بالله تعالى وبالدار الآخرة».

قلت: **وفي هذا الحديث فوائد:**

- **منها: أنَّ اليقين سبب في تهوين المصائب**، ومن ذلك معرفة أنَّه لا مَرَدَّ لقضاء الله، ولا مُعقِّبَ لحُكمِه، وأنه لا يصيب العبد إلا ما كتب الله عليه، وأن ما قدرَّه الله لا يخلو مِن حِكمة ومصلحة، كما مرَّ بيانُه بالتفصيل.
- **ومنها: أنَّ مصيبة الدين هي البلية الكبرى، والرزيَّة العُظمى**، وهي أعظم المصيبتين، وأشد النبكتين، وهذا لُبُّ هذه الرسالة.
- **ومنها: أنَّ الآخرة هي هَمُّ المؤمن الأعظم**، ومطلبه الأكرم، بخلاف مَن جعل الدنيا قِبلةَ فؤادِه، ولم يُبالِ بآخرتِه ومَعادِه.

قال شيخنا عبد الله العنقري -نفع الله به-[2]: «مصيبة الدِّين أشد ما يُصابُ به العبد، **ومِن دلائلها أنْ تكونَ الدنيا أكبرَ هَمِّـه، فمهما أصيب دينُه لم يُبالِ**».

١- «مرقاة المفاتيح» (٥/ ١٧٢٨)، بتصرف يسير.

٢- من تغريدة له، على حسابه في «تويتر».

مِــن كُــلِّ شـــيءٍ إذا ضَــيَّعْتَهُ عِــوَضٌ

ومَـــا مِـــن اللهِ إنْ ضَـــيَّعْتَهُ عِـــوَضُ

قال بعضهم: «لكل أحد في الله عوض من كل أحد، وليس لأحد من الله عوض بأحد».[1]

- **ومنها: أنَّ مصيبة الدِّين، والانشغال بالدنيا عن طاعة رب العلمين، سبب لتسليط الأعداء علينا من الداخل والخارج.**[2]

١- «الآداب الشرعية» (٢/ ١٧٨).

٢- وقد فصَّلت الكلام على آثار الذنوب على العباد، وأنها سبب في فساد أحوال البلاد في كتابي: «واسع المنة بالتعليق على «شرح السنة»»، يسَّر اللهُ طبعَه.

أعظم المصائب في الدنيا: موت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إنَّ مِن أعظم المصائب التي حلَّت بهذه الأمة موتُ نبيِّها محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ المُصابُ به أعظَمُ مُصاب، وفَقدُهُ أشدُّ على كُلِّ مسلمٍ مِن فَقد الولَد والوالِد وسائر الأحباب، وكيف لا وقد تأثَّرت لفراقه حتى الأخشاب![1] اللهم صلِّ وسَلِّم وبارِك عليه.

وتأمَّل -زيَّن اللهُ قلبَك بمحبَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قولَ الله للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إثْرَ غزوة أُحُد: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا

١- أُشيرُ إلى الحديث المشهور في قصَّة حَنين الـجِذع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد روى البخاري (٣٥٨٣) عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: «كان النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إلى جِذْعٍ، فلَمَّا اتَّخَذَ المِنْبَرَ تَـحَوَّلَ إليه فحَنَّ الجِذْعُ فأتاهُ فمَسَحَ يَدَهُ عليه». وعند ابن ماجه (١٤١٥): «فاحْتَضَنَهُ، فسَكَنَ»، ثم قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَـحَنَّ إلى يومِ القِيامة**».

وروى ابن حبان هذا الحديث في «صحيحه» (٦٥٠٧) ثم ذكر أنَّ الحسنَ كان إذا حدَّثَ بهذا الحديث بَـكَى، ثم قال: «**يا عِبادَ الله الخَشَبةُ تَحِنُّ إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَوقًا إليه لـمَكانِه مِن الله، فأنتم أحَقُّ أن تشتاقوا إلى لِقائِه**»!

تَعۡمَلُونَ ﴾[آل عمران: ١٥٣]، أي: اذكروا -أيها المؤمنون- حين كنتم تُبْعِدون في الأرض هاربين يوم أُحُد، لـمَّا أصابكم الفشلُ بمخالفة أمر الرسول، ولا يَنظُرُ أحَدٌ منكم لأحَد، والرسولُ يدعوكم من خلفكم -بينكم وبين المشركين- قائلًا: «إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله»، **فجازاكم اللهُ على هذا ألَـمًا وضِيقًا بما فاتكم من النصر والغنيمة، يتبعه ألَـمٌ وضِيقٌ، وبما شاع بينكم من قَتْل النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وقد أنزل بكم هذا لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر والغنيمة، ولا ما أصابكم من قتل وجراح، بعدما تـحقَّقتُم أنَّ النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لم يُقْتل، حيث هانت عليكم كُلُّ مصيبة وألَـم، واغتبطتم بوجوده** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الـمُسَلِّي عن كُلِّ مصيبة ومِـحنة، فسُبحان الذي أَوْدَع في ضمن البلايا والـمِحَن ما شاء من الأسرار والـحِكَم**، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، لأنَّ كُلَّ هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم.(١)

يقول ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «ونِعْمَ العَزاءُ فيه لأُمَّتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما أُصِيبَ المسلمون بعدَه بِمِثلِ الْمُصيبة به، وفيه العَزاءُ والسَّلْوَى، وأيُّ مُصيبةٍ

١- انظر «تفسير السعدي» (ص ١٥٢).

٢- «الاستذكار» (٣/ ٨٠).

أعظَمُ مِن مُصيبةٍ مَن انقطَعَ بمَوتِه وَحْيُ السَّماء، ومن لا عِوَضَ مِنهُ رحمةً للمؤمنين، وقَضاءً على الكافرين والمنافقين، ونَهْجًا للدِّين».

وصدَقَ حسَّانُ بنُ ثابِت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ومـــا فَقَـــد الماضُـــونَ مِثـــلَ مُحَمَّـــدٍ

ولا مِثْلُـــهُ حتـــى القِيامـــة يُفقَـــدُ

فعن ابن عباس وسابط الجُمَحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذا أصابَ أحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي فإِنَّها مِنْ أعْظَمِ المَصائِبِ**».[1]

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «وصدق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنَّ المُصيبةَ به أعظَمُ من كل مُصيبةٍ يُصاب بها المسلمُ بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أوَّلُ ظُهور الشَّر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أوَّلُ انقطاعِ الخير وأوَّلُ نُـقصانِه».

١- رواه الدارمي (٨٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢١٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١١٠٦).

٢- «التمهيد» (١٩/ ٣٢٢، وما بعدها)، مختصرا.

ثم نقل أبيات أبي العتاهية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اصــــبِرِ لِكُـــلِّ مُصيبَـــــةٍ وتَـــــجَلَّدِ
واعلَـــم بـــأنَّ الــــمَرءَ غَيــرُ مُخَـــلَّدِ

أوَ مـــا تَـــرى أنَّ الـــمَصائِبَ جَمَّــــةٌ
وتَـــرى الـمَنِيَّـــةَ للعِبـــادِ بِمَرْصَــــدِ

مَــن لـــم يُصَــبْ مِـــمَّن تَـرى بِمُصِيبَـــةٍ؟
هــــذا سَـــبِيلٌ لســـتَ فيـــهِ بِأَوْحَـــدِ

وإذا ذَكَـــــرْتَ مُحَــــــمَّدًا ومُصَابَــــــهُ
فاجعَـــلْ مُصابَـــكَ بــــالنَّبِيِّ مُحَـــــمَّدِ

ثم ساق بسنده إلى ابن القاسم بن محمد أنه قال: كان أبوبكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا عزَّى عن ميت قال لوليه: «ليس مع العَزاء مُصيبَـةٌ، ولا مع الـجَزَع فائدة، والموتُ أهْوَنُ ما بعدَه وأشَدُّ ما قَبله؛ **اذكُروا فَـقْد نَبِيِّـكُم** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **تَـهُونُ عِندَكم مُصِيبتَـكُم**، وأَعظَمَ أَجْرَكُم».

قلت: ولما مات ابنُ أبي الوليد الباجي واسمُه محمد أبو الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رثاه أبوه في أبياتٍ قال فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

أَمُحَمَّـــــدٌ إنْ كُنْــــتُ بَعْـــدَكَ صَـــابِرًا
صَـــبْرَ السَّـــلِيم لِمَـــا بِـــهِ لا يَسْـــلَمُ

ورُزِئْــــتُ قَبْلَـــكَ بـــالنَّبِيِّ مُحَمَّـــدٍ
ولَـــرُزْؤُهُ أَدْهَـــى لـــدَيَّ وأعْظَـــمُ

فلَقَـــدْ عَلِمْـــتُ بـــأَنَّنِي بـــكَ لَاحِـــقٌ
مِـــنْ بَعْـــدِ ظَنِّـــي أَنَّنِـــي مُتَقَـــدِّمُ

وعن أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «لَـمَّـا كان اليَومُ الَّذِي دَخَلَ فيه رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدِينَةَ أَضَاءَ منها كُلُّ شَيْءٍ، **فلمَّا كان اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فيه أَظْلَمَ منها كُلُّ شَيْءٍ، وما نَفَضْنَا عن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأَيْدِيَ حَتَّى أَنْكَرْنا قُلُوبَنا**».[٢]

١- انظر «ترتيب المدارك» (٨/ ١٢٦).

٢- رواه ابن ماجه (١٦٣١)، وصححه الألباني في «مختصر الشمائل المحمدية» (٣٢٩).

ومِن شعر أبي سُفْيَانَ بْنِ الحارِث رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَرْثِي رَسُولَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

لقـــد عَظُمَـــت مُصِـــيبَتُنا وجَلَّـــتْ
عَشِيَّـــةَ قِيـــلَ قَـــدْ قُـــبِضَ الرَّســـولُ

وأَضْـــحَتْ أَرضُـــنَا ممَّـــا عَراهـــا
تَـــكادُ بِنَـــا جَوانِبُهـــا تَـــمِيلُ

فَـــقَدْنا الـــوَحيَ والتَّـــنْزيلَ فِينَـــا
يَـــرُوحُ بـــه ويَغْـــدُو جِبرائِيـــلُ

وذاكَ أَحَـــقُّ مـــا ســـالَتْ عليـــهِ
نُفُـــوسُ النَّـــاسِ أو كـــادَت تَسِـــيلُ

قال السفاريني رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «**وهذه المصيبة في نفس الأمر مِن أعظَمِ المَصائبِ في الدين**».[2]

قلت: **فمن نظر إلى هذه المصيبة الكُبرى هانَت عليه أخواتُها الصغرى**، ولتَعلمَ ذلك: تَخيَّل لحظَةً أنه قد يُعرَضُ عليك رَفعُ ما بك مِن بَلاء على أن

١- «غذاء الألباب» (٢/ ٣٣٤).

٢- انظر في هذا الموضوع خاصة: «مصيبة موت النبيصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأثرها في حياة الأمة»، لحسين العوايشة.

يُصابُ رسول الله بشوكَةٍ -لو كان حيًّا- عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ! لا أظنُّ مُسلِمًا يَرضَى بأدنى مِن هذا!

فهذه القصَّة التي حَصَلَت لصحابي جليل وهو خُبَيب بن عَديٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تُعطيكَ فِكرةً عمليَّةً وتطبيقًا واقعيًّا لمعنى هذا الحديث.

وتذكَّرْ -رعاك الله- أبا بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين وُطِئَ في مكة يومًا بعد إسلامه، حتَّى شارَف على الهَلاك، ولم يَكُن له هَمٌّ إلَّا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو يقول: «**ماذا فعل رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟».

ونحوه ما رُوي مُرسلًا في قصَّة المرأة الأنصارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا التي قُتِل أبوها وأخوها وزوجُها يومَ أُحُد، وهي -مع هذه المصائب في أقرب الناس لها- تقول: «**ما فعل رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟»، فلما عَلِمت أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بخير، قالت: «**كُلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَل**»، أي: تَهُون.[1]

١- انظر نماذجَ من نوادر الحب والتفاني الذي كان من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ تُجاه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كتاب «ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين؟» للندوي رَحِمَهُٱللَّهُ (ص ١٦٧-١٧٠).

البكاء على ضياع الدِّين أولى من البكاء على ضياع الطين

وفي خِتامِ هذه الرسالة أَحْبَبتُ أن أُنبِّه إلى ما هو داخل فيما سَبَق مِن كلام، وحاصله أنَّ في المسلمين مَن يُكثِرُ البكاء على ما ضاع مِن مُلك المُسلمين، وسقوط دولتِهم، وانكسار شَوكَتهم، وهذا حقٌّ ما لَم يُجاوِز حدَّه.

وبُجاوَزَةُ حدِّه تكون بأمرين:

- **الأول**: ببَثِّ الإحباطِ في المسلمين، وتوْهينِ صفِّهم، والفتِّ في عَضُدِهم.
- **والثاني**: أن يكونَ أعظَمَ مِن البُكاء على فساد الدين، ومظاهر الشرك، وانتشار البدع، ومحادَّةِ الله ورسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وإلى هذا أشارَ ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله[١]: «مِن عَجيبِ ما نَقَدتُ مِن أحوالِ الناس كَثْرَةُ ما ناحُوا على خَرابِ الدِّيار، ومَوتِ الأقارِب والأسلاف، والتَّحَسُّر على الأرزاق بذَمِّ الزَّمان وأهلِه، وذِكر نَكَدِ العيش فيه، وقد رَأَوْا مِن انهِدامِ الإسلام، وشَعَثِ الأديان، ومَوتِ السُّنَن، وظُهورِ البِدَع، وارتِكابِ المعاصي، وقَضٍّ في الفارِغ الذي لا يُجْدِي، والقَبيحِ الذي يُوبِقُ ويُؤْذِي، **فلا أَجِدُ مِنهم مَن ناحَ على دينِه**، ولا بكَى على فارِط عُمرِه، ولا آسَى على فائِتِ دَهْرِه.

١- نقله عنه ابن مفلح المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٤٤) (٣/ ٢٤٠).

وما أَرى لذلك سببًا إلَّا قِلَّةَ مُبالاتِهم بالأديان، وعِظَمَ الدنيا في عُيونِهم، ضِدَّ ما كان عليه السَّلَفُ الصالِحُ، يَرْضَونَ بالبَلاغ، ويَنُوحُون على الدين» .

-تمَّت بحمد الله-[١]

١- قال شيخُنا بدر بن علي العتيبي -نفع الله به وسدده- معلِّقا: «الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. تـمَّت قراءةُ هذا الكتاب المبارك، وأنا بين السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع، في رحلة عبر الطائرة من مدينة الرياض إلى الطائف، وكان ذلك مع شروق شمس يوم الجمعة ٢١ ربيع الأول ١٤٤٥، والحمد لله رب العالمين».

فهرس الموضوعات